منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

لو أنني كنت مايسترو

شعر



I B R A H I M N A S R A L L A H

إبراهيم نصر الله

لو أنني كنت مايسترو

شعر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
1430 هـ - 2009 م

ISBN: 978-614-421-044-4

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: الفنان محمد نصر الله
صورة الغلاف: المؤلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مايسترو

لو أنني كنتُ مايسترو
لكانت حياتيَ أفضلْ!
وكان الفضاءُ هنا فوق رأسي فسيحاً
ومعنى الخليقةِ أجملْ!!

لو أنني كنت مايسترو
لكانت لديّ
فرقةٌ ليس يشبهها أيُّ شيّ:
سبعةٌ من خيولٍ أثيريَّةٍ من بلادِ العربْ
ورفٌّ حساسيَن من قلبِ آسيا
وشحرورةٌ من بلادِ الشَّمالِ
ونَمْرٌ يسيرُ بلا وجَلٍ
فوق خطٍّ يُسمونَهُ الاستواءْ!
ووعلٌ يهدهدُ طيفَ وليفتهِ في الضبابِ
ويمضي به عابراً دون خوفٍ سُهوبَ الشتاءْ

لو أنني كنت مايسترو
لدوَّنتُ صمتيَ فوق الهواءْ
وأقنعتُ ريحَ الخماسين أن تترفَّقَ بالصَّحَرَاءْ
وأعدتُ صياغةَ هذي الأعاصيرِ
بعثرتُ هذا السَّحابَ قليلًا
لتعبرَ حزمةُ ضوءٍ نوافذَ سجنٍ قديمٍ
وتلهو قليلًا مع السُّجناءْ

لو أنني كنت مايسترو
لوحَّدْتُ أغنيةَ الأنبياءْ

مايسترو

لو أنني كنتُ مايسترو
لكانت حياتيَ أفضلْ!
وكان الفضاءُ هنا فوق رأسي فسيحاً
ومعنى الخليقةِ أجملْ!!

لو أنني كنت مايسترو
لكانت لديّ
فرقةٌ ليس يشبهها أيُّ شيّ:
سبعةُ من خيولٍ أثيريَّةٍ من بلادِ العربْ
ورفٌّ حساسيَن من قلبِ آسيا
وشحرورةٌ من بلادِ الشَّمالِ
ونَمْرٌ يسيرُ بلا وجَلٍ
فوق خطٍّ يُسمونَهُ الاستواءْ!
ووعلٌ يهدهدُ طيفَ وليفتهِ في الضبابِ
ويمضي به عابراً دون خوفٍ سُهوبَ الشتاءْ

لو أنني كنت مايسترو
لدوَّنتُ صمتيَ فوق الهواءْ
وأقنعتُ ريحَ الخماسين أن تترفَّقَ بالصَّحَرَاءْ
وأعدتُ صياغةَ هذي الأعاصيرِ
بعثرتُ هذا السَّحابَ قليلًا
لتعبرَ حزمةُ ضوءٍ نوافذَ سجنٍ قديمٍ
وتلهو قليلًا مع السُّجناءْ

لو أنني كنت مايسترو
لوحَّدْتُ أغنيةَ الأنبياءْ

لو أنني كنتُ مايسترو
لكنتُ أخذتُ بثاري
من حروبٍ على بابِ بيتي تصيحُ
ومن لهبٍ فاجرٍ ودَوِيّ
لو أنني كنتُ مايسترو لكنتُ
دعوتُ الخلائقَ من كلِّ لونٍ
وصلَّيتُ للحيِّ في كلِّ حيّ
وصدَّقتُ ما لم يقلْه البشرْ
من شعوب الصحاري..
الجبالِ..
البحارِ

لو أنني كنت مايسترو لكنتُ عقَدْتُ يديْ
حول صدري
وخلْفَ نوافذِ بيتي كنتُ اختبأتْ
لأسمعَ ضحْكاتِ طفلةِ جاري!

ذاهب للقائك

انتظرني إذن فيَّ
سوف أوافيكَ بعد قليلٍ
خرجتُ صباحاً لألقاكَ فيكَ
ولكنني لم أعُد بعدُ
اجلِسْ هنا واستعِرْ دفتري ودواتيَ واكتبْ قصيدتكَ الآنَ
عن حُلُمٍ ذاهبٍ للقائكَ
واقرأْ كتابي الأخيرَ
اقتبسْ منه ما لم أقلْهُ لغيركَ
وأغفُ قليلًا إذا شئتَ حتى أعودْ
قبلَ خمسٍ دقائقَ مرَّ الجنودْ
قبل خمسٍ دقائقَ كانوا هنا
يعبثونَ بقلبي وهم يسألونَ
ويستجوبونَ الهواءَ لكي يستبيحوا جمالَكْ
انتظرني هنا فيَّ،
سوف أوافيكَ بعد قليلٍ
أنا ذاهبٌ كي أموتَ مكانَكْ

في البعيد هناك 1

في البعيد هناكْ
طرقٌ تتعرَّج صاعدةً
لتفتِّشَ عن خطوةٍ وصلتْ قبلها، ذات يومٍ، أعالي الجبالْ

في البعيد هناكْ
شجرٌ مثقلٌ بالثمار يميلُ صباحاً إلى مدنٍ خاليةْ
من خطى العابرين وطعمِ السّؤالْ

في البعيد هناك
طائرٌ يُنشد الأغنياتِ
كعادةِ كلِّ الطيور الطليقةِ عن ظَهْرِ قلْبٍ
وما فاضَ من أغنيات يعبئُها في السّلالْ!

في البعيد هناكْ
غابةٌ تتفلَّتُ من نفْسِها
ربما ذاتَ يوم ستجتازُ بحراً وصحراءَ منسيّةً.. وتلالْ

في البعيد هناكْ
نَمِرٌ يتلّهى بعنْقِ الظَّهيرةِ، يخمشُهُ
وعلى هَدْأَةِ الظّلِّ يهذي
لما في الرِّياح الغريبةِ من خَفَرٍ وجمالْ

في البعيد هناكْ
ذئبة ستُعانقُ أرنبةً لو رأتْها تمرُّ
الصقيعُ مدىً، لا،
وليس هنالكَ من جهةٍ في الجهاتِ الكثيرة غير الشَّمالْ

في البعيد هناك

الخطايا الصغيرة في ظلِّ معبدها
وهناكَ
الصلاةُ، الكتابُ، التنسُّكُ
والأرضُ ممتدةٌ تحت وحشِ الرَّدى وهبوبِ النِّصالْ

في البعيد هناكْ
واحةٌ سقطتْ من يباس السَّحابِ
ولم يبقَ منها سوى حَجَلاتٍ تصيحُ
وحنجرةٍ من رمالْ

في البعيد هناكْ
سُهبٌ لا تميل إلى ما يُذكِّرها بالحروبِ القديمةِ
تحرسُ حلْمَ فتاةٍ تطيرُ لموعِدها دون خوفٍ
فتاةٍ تضيء كأغنية وكتابٍ
وفي مشْيها ما يُذَكِّرُ هذا المدى بغزالْ

في البعيد هناكْ
سفنٌ لا تعود إلى أَصْلِها سفناً
كلَّما حملتْ للبعيد رجالا وعادتْ محمّلةً بالظلالْ

في البعيد هناكْ
خطايا - حلالُ
حلالُ - ضلالْ
ووقعُ غيابٍ - حضورٍ
ووقع حضورٍ - خيالْ

في البعيد هناكْ
فراغٌ
وسيدةٌ عَبَرتْ برَّ خمسينها، لا الهواءُ تحرَّكَ في شَعْرها

لا، ولا الجسمُ فاضَ، ولا القلبُ مالْ..

في البعيد هناكْ
تماثيلُ ترقبُ من ألف عامٍ مرورَ تماثيلَ تشبهها
ويعذِّبها، ليس زَرْقُ الطيورِ صباحاً مساءً
يعذِّبها دهشةُ العابرين وحَيرَتهم في سؤالُ الكمالْ

في البعيد هناكْ
ضحكٌ كالبكا، صرخاتٌ، عمىً،
وسكاكيُن صمتٍ،
شوارعُ تخشى الظّلامَ، وأخرى تخافُ القناديلَ،
طفلٌ يحاولُ أن يبلغَ الخامِسةْ
دون جدوىً،
وشيخٌ يُمزِّقهُ سأَمٌ
وفصولٌ تمرُّ على الأرض تشبه يوماً بلا مطْلَعٍ أو زَوالْ

في البعيد هناكْ
على ضفةٍ لم أصِلْها،
أنا واقفُ أتطلَّع صوبي هنا
وأفكِّر بي وكأنيَ غيري
وأكتبُ ما قاله عن ظلامي وعن ضحكاتي وعن صرخاتي
وعن كلِّ ما قيلَ أو سيُقالْ

في البعيد هناكْ
مرَّ قلبي مرورَ غريبٍ
وعاشَ، أصادفهُ بين حينٍ وحينٍ
فيجري إليَّ كطفلٍ ملاكْ
ربما كان قلبيَ أنتَ إذنْ
ربما كان قلبيَ أيضاً سِواكْ!!

في البعيد هناكْ

في البعيد هناك..2

في البعيد هناكْ
طفلةٌ كبرتْ مثلَ داليةٍ
وأطلَّت على ألفِ سطح وخمسين حوشاً
وشعباً من الصِّبْيَةِ الأشقياءْ

كل ما في نداها يذكّر بالبحرِ
لكنها لم تكنْ محضُ ماءٍ
ولا مطراً راكضا في السماءْ

اسمها يتقلّبُ فيها كطير نقيٍّ
ويعلو بها كلما جفَّتِ الأرضُ أو عزَّ هذا الهواء

طفلةٌ تتسلّق في السّرِّ بعضَ الحنين إليَّ لتكب
قبلَ مرور الجيوش مساءً
وما يحملُ الغرباءُ لأعراسِهم من بكاءْ!

ذات يومٍ حلمتُ بها
ثم كانتْ
ولكنني حينما رحتُ أتبعُها سمَقَتْ كالنخيلِ
تطاولتُ، لكنّها لم تعدْ
وبقيتُ على جذعها ساهراً نصفَ صيفٍ حريقٍ
ونصفَ شتاء!

طفلةٌ ليس يعرفها أحدٌ إذ تمرُّ سوايْ
علَّمتُها بين صحوي ونوميَ سرَّ النّدى في النّدى والحياءْ

وفي سهلِ قلبيَ قلتُ اركضي
واركضي

انتشري مثل حقلين من زعتر ووعودْ
وميلي كأشجار حَورٍ
كمانٍ يحطُّ برفقٍ على صدرِ عودْ!

في البعيد هناكْ
طفلةٌ لو أطلَّتْ ثلاثَ دقائقَ صوبي
لراوغتُ هذا الهباءْ
ولفاجأتُ نفسي هنا قرب نفسيَ
أضحكُ أو أشتهي
أو أشاءْ!!

في البعيد هناكْ
مهرةٌ أو لنقلْ مرأةٌ
خطوها أنهرٌ تتعانقُ قبلَ وصول المحيطِ
ولا شيءَ يبقى لهذا الحنين القديمِ إليها هنالكَ إذ
تختفي فجأةً غيرُ هذا الغناءْ:
في البعيد هناك...
في البعيد هناك...

كُنْ دُمْ!

لنعترف الآنَ
لا شيءَ لكْ!
كنتَ تحمي الخليقةَ من ثمرٍ يتفتَّحُ روحاً
تعضُّ على نارِ جسمكَ بالبرْدِ
تحبسُ شهقةَ هذه الغزالةِ فيكَ
وتشهدُ موتَ الحصانْ!!
لم يكن لكَ غير الطريقِ الذي سرتَ فيهِ ولم تتساءلْ إلى أينَ يمضونَ؟ مِنْ أين جاؤوا؟
وكيف يوارونَ ما فيكَ من أممٍ تتطلّعُ للضوءِ من قبل هذا الزمانْ!
كأنكَ مذبحةٌ أينعتْ في ثلاثِ دقائقَ
قد سقطتْ من عناوينِ هذي الجرائدِ
من نشراتِ الإذاعةِ
من ساعة حيَّةٍ
للمذيعةِ والبهلوانْ!
ولكنكَ الآن في الههنا نصفَ فجر سيُلقى به بعد حينٍ هناكَ إلى أيِّ شيءٍ
فلا كنتَ قبلًا ولا حُلْم ذاك الذي فيكَ كانْ!
شبحاً للمكانْ
تتجوَّلُ في الكهفِ
لا ضوءَ في آخر العَتْمِ
الضوءُ في بابهِ!!
والرياحُ تهبُّ
كأن الرياحَ تهبُّ
فيتَّسِعُ الحقلُ يرتفعُ الجبلُ
الوقتُ يجمَدُ
تشتبكُ النَّخلتانْ!!
ثَمَّ بعضُ الهدوءِ ترامى كقطنٍ من الصمتِ

تسمعُ همساً خفيفاً
: أُحبكِ
صمتٌ
ولا شيءَ بعدُ
قليلًا.. خطىً في الممرِّ
قليلًا.. خريرُ مياهٍ
قليلا.. صدى دمعةٍ
ويدٌ تتسلَّلُ نحوكَ واثقةً
لتطوِّح، دون ارتعاشٍ إلى سلةِ المهملاتِ، بما فيكَ
من بشرٍ وأغانْ!!
وكأنَّ الذي فاضَ ليسَ لها، ليسَ منها،
وهذا الجناحَ المُكَسَّرَ ليسَ له الطيرانْ!!

هنا، ما تبقّى من الليلِ سوف تحاصرُ صيحاتِ ما فيكَ من بشَرٍ دون جدوى
وتعوي بصمتٍ جريحٍ كما الحيوانْ
حين تدركُ أن الحياةْ انتهتْ
وانتهى المهرجان!!

الآخرون

من هنا يعبرونَ
ولا يتركونَ لنا
غيرَ حفنةِ ظِلٍّ على البابِ تَرْقبُنا
حين نعبرُ أبوابنا في المساءِ
وحين نغادرُها في الصباحْ
حفنة من ظلالٍ هنا تتأمَّل ما ظلَّ منا
لهذي الرياحْ

حفنة تتأملُ هذا الشحوبَ الأخيرَ
على درجاتِ البيوتِ
وهذا الظلامَ الوحيدَ على حافَّةِ النافذةْ
وارتجافِ الصّباحْ

ها هم الآخرونْ
من هنا يعبرونْ
بعد عام لكي يحمِلوا حفنةً من ظلال ستشبهُنا
.. حفنةً من ظلالْ
ليمضوا بنا هادئَيْن إلى مدنٍ من رمالْ

المجانين

المجانيُن
منذ الصباحِ يدورونَ بين البيوتْ
يُنصِتونَ لصمتِ النوافذِ
خَشخَشةِ الورقِ السَّاقطِ
الخطواتِ التي تترصّدُ أحلامَهم في الهواءِ
وفي غرفِ الريحِ فوق السّطوحْ

المجانين لا..
لا يقولونَ شيئاً
يمرُّونَ بين رصيفين كالعرباتِ الجديدةِ
لا يحمِلونَ كلاماً على ظَهرِهم لا،
ولا قَمراً في الجروحْ

يهمِسونَ لمن ليس يَسمعُ أو يشتهي أن يبوحْ
عن هشاشةِ عَظْمِ الخيولِ
وعن سُحُبٍ من طحالبَ سوداء فوق أغانٍ وروحْ

المجانين مرُّوا مرورَ الكرامِ
ولم يتركوا للمدى خلفَهم
غيرَ ناي يُغنِّي وناي ينوحْ

الأطباء

الأطباءُ نصف ملائكةٍ
طيبونَ
يسيرون بين الأَسِرَّةِ يلتقطونَ النسائمَ والحشْرَجاتِ
بأيدٍ مُعقَّمةٍ
وثيابٍ حليبيَّةٍ
وسكاكيَن حالمةٍ
ووجوهٍ مُضمَّخةٍ بالسَّلامِ
وروحٍ مسافرةٍ في اليقيْن

الأطباءُ نصفُ ملائكةٍ
يَرْتِقُونَ الزمانَ بخيطِ الحنيْن
إلى كلِّ ما كانَ أو سيكونْ
لنشقى هنا وهنا أو هنالكَ، بضعَ سنين!!

الأطباءُ لا يذكرونَ سوى مَنْ سيأتي
الأطباءُ سربُ طيورٍ أليفٍ يُحلِّقُ بين حياتي وموتي!

طريق البيت

العائدونَ من الحربِ
لا يذكرونَ من الحربِ غيرَ الطريقِ إلى البيتِ
.. يا ليتهم وصَلوا!!
حدَّثونا عن الموتِ
لكنّهم حينما لاحَ في قلبهم
ظلٌّ من سقطوا من رجالٍ، أمامَ بنادقهم، خَجِلوا
العائدونَ من الحربِ
لم يَصِلوا أيَّ شيءٍ
ولن يَصِلوا!!

صوتهم

لستُ سهلًا ولا جبلًا
قلتُ للريحِ
أو ولداً يتراكضُ خلفَكِ من نصفِ قرنٍ
ليهمسَ في أذنيكِ:
أَيا ريحُ هبّي هنا الآنَ أكثرْ
...
لستُ زيتونةً فوق تلكَ التلالِ
تُؤَثِّثُ أحلامَها وهي تخضرُّ
تنمو بلا أيِّ خوفٍ من الغدِ
واثقةً بالهواء الأليفِ
وكلِّ الحنين إليها..
الحنين البعيدِ المُبعثَرْ
...
لستُ وردةَ هذا السِّياج الرّماديِّ
لا تتساءلُ: ما العُمْرُ ؟
واثقةً أنَّ كلَّ الذي حولها سوفَ يمضي إلى الملحِ
أو للترابِ
ولكنّها في فمِ النّحلِ سُكّرْ
...
لستُ نافذةً تتطلّعُ للضوءِ إذ أعتمتْ غرفةٌ
ستضاءُ
بتنهيدةِ العاشقَينِ الصّغيرَينِ بعدَ قليلٍ
وتصبحُ أكبرْ !
...
لستُ عصفورةً تتقلَّبُ في الجوِّ

تسخرُ من طائراتِ العدوِّ
وحيَن ترى طفلةً
لم ترَ الطيرَ من قبلُ
تهبطُ
كي تتمخْطَرْ !
...
لستُ أغنيةً تتسكَّعُ قربَ جدارِ الهزيمةِ
وهي ترددُ
سوفَ أعيشُ على كلماتي
كما عاش أطفالُ إمرأةٍ ذاتَ يومٍ
على وجبةٍ من حصىً
سأعيشُ
إلى أن أراه حصىً يتبعثرْ
...
لستُ ضِحْكةَ ذاك الفتى في الطريق إلى حفلةٍ للعذابِ
أُعِدَّتْ له في الظّلام
الظلامِ الذي كان قَفْراً وأصبحَ منتصفَ الليل أقْفَرَ أقْفَرْ
...
لستُ أُمَّاً تُعدِّدُ أبناءَها الشهداءَ
وتهمسُ للهِ:
كانَ الكبيرُ صغيراً على الموتِ
أما الصغيرُ فقد كان أصغَرْ !!
...
لستُ (غَزّةَ) تبكي وتضحكُ في نصرِها
وقد اتَّسعتْ خطوتين
وضاقتْ طريقُ المُحَرِّرِ
نحو بقيتهِ

وفضاءُ المُحَرَّرْ!

...

لستُ.. لستَ.. ولسْنا
ولكنه دائماً.. صوتهم
من بعيدٍ يجيءُ على ظَهْرِ ليل كجرح الصّدى
فأُغنّي لهم

سَلام!!

سأُلقي السَّلامَ على كلِّ شيء لأنيَ فيهِ:
الحمَامُ على حافةِ السّور يَهْدِلُ والقطُّ إذ يترقَّبهُ
وعلى الزَّهرِ يصعدُ من بينِ فكّيِّ مجزرةٍ
مثلما يصعدُ الوردُ في أيِّ حقلٍ
على طائرِ الشمسِ ينقرُ حبَّ النّدى هادئاً
وعلى النَّحلِ يشربُ كأسَ الرحيقْ

...

سأُلقي السلام على كلِّ شيء لأنيَ فيه
الرصيفُ المحاصرُ ما بينَ جيشينِ يقتتلانِ
على ما تبقَّى هنا من صغارٍ يفرّونَ من مقعدِ الدَّرسِ
كي يؤنسوا - خلسةً - صمتَ هذا الطريقْ

...

سألقي السلامَ على كلِّ شيء لأنيَ فيه
المسافةُ ما بينَ أغنيتينِ
وقد أقفرتْ من قلوبٍ تُعمِّرها بالحنينِ
وتطفئُ فيها امتداداً صقيعاً بعشقٍ حريقْ

...

سألقي السلامَ على كل شيء لأنيَ فيه
السماء التي علَّقتْني هنا كالصَّليبِ ثُريّا
على الأرضِ.. لا شيءَ فيها تبقَّى
سوى نخلةٍ في فرا غٍ عميقْ!

...

سألقي السلامَ على كلّ شيء لأنيَ فيه
صغاري الذينَ يطيرونَ حوليَ مثلَ الفَرَاشِ
ولم يعرفوا الفرقَ ما بينَ ضوءِ القناديل، بعدُ،

ونارِ الحريقْ

...

سألقى السّلام على كلِّ شيء لأني فيهِ

على النَّثرِ والشِّعرِ

يقتتلانِ إذا ما غفوتُ

ويقتتلانِ إذا ما صحوتُ

وقلبي الرهينةُ

هذا يقولُ: أريدُ القصيدةَ فِدْيةَ قلبكَ

ذاكَ يقولُ: الروايةَ

لم يعرفا بعدُ أني بغير فؤاديَ لا أستطيعُ الكتابةَ

- خُذْنا إذنْ فِدْيةً، سيقولانِ، واكتُبْ

كما شئتَ، ما شئتَ،

هذا زمانٌ يضيقْ

...

سألقي السلام على كلِّ شيء لأني فيه

على امرأةٍ تترقَّبني منذ عُمْرٍ

وأخرى حلُمتُ بها دون جدوى

وفرَّتْ من الحُلْم تعدو بعيداً بجيْدٍ طويلٍ وخصْرٍ رقيقْ

...

سألقي السّلام على كلِّ شيء لأنيَ فيه

الطفولةُ، تلكَ الأسيرةُ في دفتري ههنا

منذ خمسيَن عاما

وتلكَ الكهولةُ إذ تترقّبني بسلامٍ هناكَ بلا قلقٍ

في نهاياتِ ذاك المضيقْ

...

سألقي السلام على كلِّ شيء لأنيَ فيه

على قاتلي المطمئنِّ الأنيقِ

وعين الصديق التي تترقَّبُ زهرَ خيانتهِ يتفتَّحُ
ما ان تسيلَ هنا في الممرِّ دماءُ الصديقْ!!!
...
سألقي السلامَ على كلِّ شيء لأنيَ فيه
سألقي السلام عليكمْ.. علينا
على نصفِ يومي الذي لم أعشْهُ
على نصفِ أمسي الذي فرَّ من راحتيْ كاليمامةِ مُبتعِدا

سألقي السلام على نصفِ أرضٍ
على ثُلث منفىً
ورُبْع غناءٍ
وخُمْس بكاءٍ
وسُدْس حياةٍ
وسُبْعِ رَدى.

على ثُمْنِ حربٍ
وتُسْعِ سَلامٍ
وعُشْرِ مدى !!!!

أمي

كلما أبصرتنيَ راحتْ تردِّدُ:
ها شبتَ قبليَ
تنشرُ خصلاتِها في الهواءِ
تفتِّشُ عن شَعرةٍ قد رماها البياضُ بأسمائهِ
وتردِّدُ: لا شيءَ
قد شبتَ قبليْ
وتسألُني فجأةً:
هل رأيتَ الذي مرَّ بي؟!
هل رأيتَ
خروجيَ من جنَّتي
وضياعي هنا في مكاني المقيدِ
في خطوتي
وانفراطِ عصافيرِ روحي صباحاً على عتباتي
مساءً، على حزنِ أُغنيتي؟!
وتردّدُ: لا شيءَ
لم ترَ مثليْ
وقد شبتَ قبلي!!
وتضحكُ
: لولا ارتعاشُ يديَّ القليلُ
وهذا الوهَنْ
حينما أصعدُ الدَّرجاتِ
لقلتُ بأني ما زلتُ تلك الصَبِيَّةَ
تصعدُ تلًا
وتهبطه جبلًا
أو وطنْ

وتعيدُ السؤالَ..
أقولُ لها
لن يغارَ العجوزُ- الفتى من شبابِكْ
وتضحكُ ثانيةً
: اعترفْتَ!!
أهزُّ لها الرأسَ كي لا أقولَ
لقد شبتُ قبلكِ هذا لأنّي أنا من رأى
يا وليفةَ هذا الصّباحِ المُعَذَّبِ كلَّ عذابِكْ!

صيد

.. وإلى الصيدِ نذهبُ منذ ثلاثيَن ألفِ سنةْ
الطيور تفرُّ، النمورُ الوعولُ
الذئاب تفرُّ
الضباعُ
السَّناجبُ
والدّودُ
واللحظةُ الآمِنَةْ
وجموعُ الشّجرْ

صوبَ تلك الصحاري يفرُّ النخيلُ
ويهرعُ حَوْرٌ إلى المنحَدرْ

.. وإلى الصيد نذهبُ منذ ثلاثين ألف سنةْ
لنجتزَّ عنقَ الحمامةِ
نرمي الصباحَ بسهْمٍ
ويُطبقُ جيشٌ على سَوْسَنةْ!
ونُعِدُ الشِّباكَ لعابرِ دربٍ، سيَصْلُحُ للأكلِ
إن أفلتتْ من يدينا الحباري، الوعولُ الصغيرةُ والأحصِنةْ
وظلالُ القمرْ!!

صوبَ بحرِ الظّلامِ تطيرُ النجومُ
ويحترقُ الضوءُ تحتَ المطرْ

.. وإلى الصيدِ نذهبُ
نرجعُ حيناً ببعضِ القرى
وببعضِ المدائن أسرى
ونختطفُ الأمكنةْ

من أعالي الجبالِ ومن ضفةِ النَّهرِ
من عَتَماتِ الصَّحاري البعيدةِ
من شاطئٍ يتذوَّقُ فجراً مرورَ الحساسينِ في الدَّندَنةْ
ورجوعِ السفرْ

من أيادٍ تلوِّحِ منذُ سنينٍ
وتبحثُ عن أثرٍ للبشرْ!

وإلى الصيد نذهبُ منذ ثلاثيَن ألفِ سنةْ
فنعودُ بطفلينِ حيناً، وحيناً نعود بشَعبٍ
وأرضٍ خرافيَّةٍ تتهجّى اسمَها
وتردُّ عن الحُلْمِ جيشَ الكوابيسِ
لا تشعل النارَ في الفجرِ
كي لا تُعكِّرَ خطْوَ النّسائمَ بالأدْخِنةْ
وارتعاشِ الشَّررْ

على عتباتٍ تُصلِّي على
نبضةٍ أو وترْ

.. وإلى الصيد نذهبُ منذ ثلاثيَن ألفِ سنةْ
الوحوشُ هنا وهنا وهنا
وعلى شفةِ الريحِ جفَّتْ أغانٍ
وجفَّتْ حقولٌ على جرسيَّاتِ هذي الكنائسِ، والمئذنةْ
واطمأنَّ الخطرْ

على الثلجِ يسقطُ هذا الحمَامُ غريباً
كأن الفضاءَ انكسَرْ

وإلى الصيدِ نذهبُ منذ ثلاثيَن ألفِ سنةْ
ونعودُ بما نشتهي من ضحايا

ومن شجرٍ لا يحبُّ الزّوايا
ولا تَوْقِنا
وهو يرقُبُنا في الظلامِ نُعلِّمُ أطفالَنا
كيف يمضونَ للصّيدِ من دوننا

.. وإلى الصّيد نذهبُ
لكننا لا نعودُ بشيءٍ
سوى لحمِنا !!

الغياب

هل تغيَّر إسمُكِ؟
ما وقْعُ خطْوكِ في الرِّيح، فوق التُّرابِ؟!
هنا في غيابِ الغيابِ حضورُ لضوءٍ كثيفٍ، وعتْمٍ تجلّى

هل تغير لونُكِ؟
قد قيلَ إنكِ أطْولُ منّي قليلًا
وأنحلُ من حزن نايين في طرقاتِ المساءِ.. وأحلى!
وإن ابتساماتِكِ البيضَ أرحبُ من كلِّ شِعري وأصفى
وإنكِ لا تُغلقيَن الطريقَ إلى قمرٍ أو سماءٍ
وقد كان قلبُكِ منذ البداية روحاً،
وروحُك قلباً
وعيناكِ سهْلا
وإنكِ طيبةٌ كنهارٍ
وإن حياءكِ، من كلِّ أغنيةٍ في مديحكِ، أعلى

هل تغيَّرَ اسمُكِ؟!
في اسْمِنا بعضُ ما في خطانا إلى نفْسِنا
فيه نُولدُ حيناً
وحيناً يكون لنا الإسمُ أهْلَا
إن رأيتُكِ هلْ ستجيئيَن نحوي
و هل ستقودينَ خطويْ إلى ذكرياتيَ إن ضلَّ ظِلِّي
وغادَرَني يتأبَّطُ ساعدَ غَيْري
ويغدو لذاكَ الغريبِ الذي مرَّ أصْلًا وفَصْلا؟!!
حلمتُ بما يحلم الحالمونَ
بنهر جمالٍ
وكوكبةٍ من حقولٍ تسيرُ إلى جانِبَيّ،

جانبيكِ، هنا تتسابقُ جَذْلى
وبحرٍ إذا ما غَمَسْتِ أصابعَ رجليكِ فيهِ
وداعبتهِ يغمرُ الأرضَ عَدْلا

هل تغير إسمكِ؟!
كم عمركِ الآنَ؟
مَن أصدقاؤكِ؟
لم يُبقِ لي الدَّربُ عُشباً يحدّثني كلّما عمَّ صمتٌ
ولم يُبقِ لي شجراً أستظلُّ
ولم يُبقِ خِلّا

بلغتُ مجاهلَ روحي
وحين رجعتُ
رأيتُ النذالةَ قد عُلِّقَتْ في الشوارعِ شمساً مطرَّزَةً والنَّبالةَ خِفَّةَ عقْلٍ وجهْلا
وما من صديقٍ يصافحُ نُبلا
وما من عَدوٍّ يهابُكَ نَصْلا
كأن المدى دونَ لونٍ
كأن البسيطةَ أشباهُ موتىً وقتْلى
كأني هنا شبهُ نفسي
أقلُّ،
وقد كنتُ كُلّا
لستُ أعرفُ بعد ثلاثٍ وخمسين إن أقْبَلَ العمرُ أو كانَ ولَّى
كأنيَ من بعدِ عمْريَ هذا
رحيقاً يُمَلَّحُ
مِلْحاً يُحلَّى!!

لا سواه

ببهجةِ طفل سيصحو

هنالكَ فضةُ ماءٍ، خريرُ
سيكْمُنُ للنّهر في منعطفْ
ويمضي
يجرُ الطريدةَ خارجَ مجراهُ
صوبَ تلالٍ تصيحُ
وأوديةٍ من رصاصٍ
وفي جوفِ كهفٍ عميقٍ سيُلقي بما في يديهْ
ويسيرُ أليفاً فلا شيءَ فيهِ يدلُّ عليهْ!

ببهجةِ طفلٍ سيصحو
ليجتاحَ حقلًا من البشر الحالمَين بيوم سيشبههم ذاتَ يومْ
ويمضي بهم نحوَ أول مقبرةٍ في الجوارِ
يُهيلُ عليهم ظلاماً عتيقاً
ويُنشِدُ ما يشتهي من حرائقَ
يغزِلُ ما يشتهي من عذابْ
وقبلَ تنفُّسِ صُبْحٍ سيمضي
يداً من حديدٍ
وجسماً ضبابْ!

ببهجةِ طفلٍ سيصحو
الطيورُ على شجر الكيْنِيَاءِ مدى.
والغناءُ العميقُ إذا ما تجمَّع في لحظةٍ
سوف يُحيي هنا بلدا.
آهِ كم طعنةٍ سوف يحتاجُ طيرُ ليقتلَ
أو ألفُ طيرٍ

نهارُ سيُولدُ أو ولِدا؟!
فراشاً من الضوءِ سوف يُحلِّقُ
ما بين صوتٍ وبين صدى
ويمضي إلى آخِرٍ غامضٍ
أزلًا ناجِتاً يومَهُ أبدا ؟!

ببهجةِ طفل سيصحو

هنالكَ شمسٌ
سيقفزُ حتى يلامسَها
وإلى غُرَفٍ ليس يعرفُ أيٌّ حنين إليها طريقاً
سيفتحُ باباً بلا داخلٍ وبلا خارج ثم يُلقي بها
وسيقفزُ مبتهجاً للسماءْ

على كلِّ هذي الخلائقِ عتْمٌ
وريحٌ عَماءْ

سقط الليلُ
سوف ينادي انهضوا
باسم هذا السَّلام
على الأرضِ أغفى
على الأرض قامْ

ببهجة طفل سيصحو
وشهوةِ وحشٍ ينامْ!

الحمامة

الحمامةُ ريحٌ جنوبيةٌ
حوَّمتْ في سماءٍ بلا أيِّ أرضٍ
بَنَتْ عشَّها في عروق الصلاةْ
الحمامةُ
إمْرأةٌ لا يراها (ابن حَزْمٍ) إذا عبرتْ صدفةً كالرحيلِ
على جانبيها اختلاطُ الجهاتْ
والحمامةُ صمتٌ على كتفِ الحربِ
نورٌ يسيلُ على الملصقاتْ
ليروي الذي لم تقلْه المتاريسُ للأمَّهاتْ
والحمامةُ مولودةٌ تتهجّى اسمَها فوق هذا المدى
وتُناغي الحياةْ

عبور

الهواءُ الذي مرَّ من بين خصلاتِ شَعركِ
طارَ لبحرٍ بعيدٍ
ليُغرقَ بعضَ السُّفُنْ!

الغبارُ الذي حامَ حولكِ
ليسَ سوى عاشِقَيَن
يهيمونَ بين حواشي الزّمنْ!

تأملات

يتأمّلُ غيمُ بلاداً على حافَّةِ الهذيانْ

تتأمّلُ عاشقةٌ نافذةْ
لم تجدْ أفْقَها منذ عامين في عَتَمَاتِ المكانْ

يتأمّلُ طفلٌ أباه الذي لم يزلْ واقفاً تحت شجرةِ توتٍ
ومنذ سنينٍ يراه يموتُ
كأنَّ الزّمانَ هنا واقفٌ شبحاً في الزمانْ

يتأمّلُ حقلٌ ذبولَ خطى النهرِ فجراً
ويُنشِدُ مرثيةَ الروحِ، صمتاً، بلا شفةٍ أو لِسانْ

يتأمّل زرْعٌ هبوبَ الخماسين
في أعينِ الناسِ والحيوانْ

تتأمّلُ هذي الدُّمى طفلةً
فوق ذاكَ الرصيفِ تُشير بجبهتِها نحوَها
واليدانِ مقطَّعتانْ

يتأمّلُ جسمُ بقاياه في السجنِ
كيفَ تلاشى
ولم يبقَ من كلِّ أوصافِهِ غيرُ شكْلِ الرّمادِ وطعمِ الدُّخانْ

يتأمّل وجهُ ملامحهُ في المرايا
ويبكي: المرايا كما الناس ذاكرةٌ من ضبابٍ
ويسألها هاذياً
أين ريحي وقامتُها
أينَ ذاكَ الحصان؟!

تتأمّل أغنيةٌ خطْوَها في ارتعاشةِ حنجرةٍ يَبِسَتْ.. وكَمانْ

يتأمّل بحرٌ ضحاياهُ
لّما يزلْ بهم شغفُ لاقتيادِ العواصفِ من شَعرها
بالأغاني الحزينةِ والخيزرانْ!

تتأمّلُ حربٌ حقولًا من الموتِ لا تنتهي
ونساءً بلونِ السَّوادِ
يَسِرْنَ على خطٍّ دمعٍ رفيعٍ ويذبلْنَ قبل الأوانْ

تتأمّلُ عصفورةٌ كلَّ هذا
ولكنّها لا تكفُّ عن الطيرانْ!

صورة

تغيَّرَ فيَّ الكثيرُ أجلْ
شابَ شَعْري
الخطايا أقلُّ
وأما الخُطى فهْيَ أقصرْ!!
قهوتي في المساءِ أخفُّ
وشايِيَ من دونِ سُكَّرْ!
أميلُ إلى الأغنياتِ البسيطةِ
أكثرَ من أيِّ يومٍ مضى
وأسيرُ على مَهَلٍ
وورائي عواءُ ذئابٍ وعشرونَ خِنْجرْ
أُفكِّرُ في كلِّ ما مرَّ لكنْ
أُطيلُ تأمُّلَ ما ظلَّ أكثرْ!
وتكفي ثلاثُ دقائقَ حتى أنامَ وأصحو
وخمسُ دقائقَ كي أتذكَّرْ
مروري على الأرضِ مثل الفراشةِ
حُلْماً تجلَّى وحُلْماً تَكسَّرْ
ويَفتنُني قمرُ مطمئنُ لعشّاقهِ
وسحابٌ فقيرٌ إذا مرَّ أمطرْ

خسرتُ كثيراً لأكسبَ نفسي
ظلالي مملوءةٌ بالمياه
وقلبيَ لما يزلْ، بعدُ، أَخْضَرْ

نهاية

تبدأُ الآخِرَةْ
من نبيٍّ على ظلْمةٍ ليس فيها سوى باخِرةْ!
وزوْجينِ من كلِّ جنسٍ
وأمسٍ بلا ذاكرةْ

خلفَ هذا المدى المقفلِ الآنَ ماءُ
وفي الرِّيحِ أجنحةٌ تتهجّى الجهاتِ
تعودُ مُحمَّلَةً بالضَّياعِ
فلا الأفْقُ أفْقٌ كما ينبغي لا،
ولا القاعُ قاعٌ!

الحمامةُ مشغولةٌ ههنا بالسَّلامِ المُخنَّثِ
ما بين ذئبٍ وبين غزالةْ!
والهواءُ الذي مثل حُمَّى
يحطُّ على السّاريةْ..
في أواخرِ ليل كثيفْ
كلُّ ما ظلَّ في اليدِ هذا الزمانُ الخفيفُ
الذي لا يشيرُ إلى أيِّ شيءٍ
كأنَّ المدى مقبرةْ
.....
من غبارٍ وغصنٍ بمنقارِ طائرْ
هدوءٍ عميقٍ على السَّطحِ
خوفٍ مُقيمٍ وحُلْمٍ مغادرْ
وحربٍ مؤجَّلةٍ تنحني لكمائنِ لعْبتِهِ الماكِرَةْ
تبدأ الآخِرَةْ!

اللغات 1

قربَ جدولِ ماءٍ
أمامَ صَنوْبَرةٍ ورفوفِ طيورٍ رماديَّةٍ
يبحثُ الطفلُ عن أيِّ شيء يُقالْ
يُقلِّدُ حيناً غراباً وحيناً كناري
وحيناً يحمحمُ مثل حصانْ
عنْقُ هذا الغزالِ طريٌّ هنا تحتَ أسنانهِ
الريحُ طيِّعةٌ في يديهِ
يكورها ثم يُلقي بها للبعيد ليشهدَ ميلادَ عاصفةٍ
ويُبعثرَ كالرَّمل لحمَ المكانْ
من بعيدٍ تراقبهُ أمّهُ وتحاولُ أن تتجمَّع في كِلْمَتين اثنتين
كأنَّ اللسانْ
ليس أكثرَ من نحلةٍ في الفراغِ تدورُ
فترفعُ كفَّاً، تلوِّحُ
تصرخُ كالحيوانْ
فيصرخُ
قربَ صنوبرةٍ ورفوفِ طيورٍ رماديَّة مثلها
ثم يجري إلى آخرِ الغابةِ
العشبُ يهربُ
والضوءُ يمتدُّ درباً ليبلغَ قلبَ الزّمانْ
.....
كلُّ ما مسَّه الطفلُ كالطفلِ في الصمتِ
كان ابتعدْ!

* * *

تعودُ إلى بيتها
أمّهُ
الشمسُ خلفَ قطيعِ الذئابِ اختفتْ

والظلامُ تفتَّحَ في جسدِ الفهدِ
شيئاً فشيئاً
وفي سقفِ ليلٍ بلا أيِّ بابْ
سقطتْ نجمةٌ
فاقشعرَّ غرابٌ
وفرَّ سَحَابْ
- إذا ما رأيتُ الفتى عائداً سوف أسْرجُ قلبي له
وأقولُ الذي لا يقالُ:
سأضربه مثلَ بحرٍ وأحضُنُهُ كضبابْ!
تجلسُ الأمُّ قربَ يديها
تخطُّ على الرَّملِ صورةَ ضبعٍ بعينينِ ميِّتتينِ
وبريَّةً من كلابْ
وتحاولُ أن تتجمَّعَ في كِلْمَةٍ
دون جدوى
.....
السماءُ البعيدةُ أبعدَ من أيِّ يومٍ
وفي عتمةِ الليلِ ليلُ أبدْ

* * *

الصغيرةُ أبصرتِ الوعلَ قالتْ
وجدتُ فتاي!
أطاحَ بها الحبُّ
في لحظتينِ
وأسْلَمَها لرياحِ الشَّمالِ
تُقلِّبها كيفما شاءتِ النارُ في جسدٍ ناهضٍ وحنينٍ
وتمضي بها لكهوفٍ وتحبسُها في الظِّلالِ
الصغيرةُ لا تجد الكلماتِ
فتبكي كثيراً

وتعبرُ غاضبةً كقطيعِ خيولٍ فتركلُ دُغْلًا وسِرْبَ أُوَزٍّ
وحقلًا من الشّوكِ فوق التِّلالْ
قد رآها الفتى فتغير حالْ
وفي الأرضِ فاضتْ ينابيعُ من فضةٍ ودلالْ
ومضى قلبُها يتعثّرُ في ما يمورُ
وما لا يُقالْ

- هنا كنتُ أحتاجُ أغنيةً أو حديثاً طويلًا
ولكنَّ كلَّ الكلامِ زبدْ

* * *

بعد عشرينَ ألفاً من السنواتِ
الفتى يتكلَّمُ سبعَ لغاتْ!
وكذاكَ الفتاةُ الصغيرةُ والأمُّ
لكنَّهم بين حينٍ وحينٍ
يعودونَ ثانيةً للفلاةْ

كلُّ هذا الكلامِ الجميلِ إذن لا يُفسِّر شيئاً
هنا الروحُ تركضُ مجنونةً في امتدادِ السؤالِ
ولا جسدٌ خلفَها في الجسدْ
بشرٌ في الطريقِ
وفي الحافلاتِ، القطاراتِ
تحتَ الجسورِ وفوقَ الجسورِ
المباني، المقاهي
.. ولغو كثيرٌ
وما مِنْ أَحدْ!

اللغات 2

اللغاتُ تُحلِّقُ حوليَ مثل الطيورِ
تحطُّ على شرفةٍ وتطيرُ إلى نافذةْ
وترفرفُ بين ربيعين
يتكئانِ على صُدْفَةٍ جمعتْ عاشقَين
على شاطئٍ في الأغاني الرّقيقةْ!

اللغاتُ تسيرُ على جانبيَّ تردُّ الصباحَ
وتضحكُ مثل صغارٍ على موعدٍ مع حديقةْ
اللغاتُ..
فكلُّ اللغاتِ صديقةْ!

وبي كلُّ صمتِ المدائحِ
في عُنُقٍ صاعدٍ نحوَ شمس
وكلُّ ارتحالِ غدٍ مثقلٍ
نحوَ أبوابِ أمس
وبي كلُّ ما لم تقلْه اللغاتُ
إذا ما قرأتُكِ حيناً بشِعر وحيناً بلمَسْ

واللغاتُ تؤثثُ بيتاً لسيّدةٍ تتهجّى لقاءً طويلًا بلا أيِّ طائلْ
وأفْقاً لسائحةٍ حدَّثتْ نفسَها بثلاثِ لغاتٍ
ولكنّها لم تجدْ أيَّ معنىً يدلُّ على قلبِها
أو يرتِّبُ حُلْماً تبعثرَ في ظلِّ بابلْ
وريحاً لطفلٍ يرى العُمرَ أثقلَ من عتباتٍ
مقيدةٍ في ظلالِ المنازلْ
وحفنةَ ماءٍ لصحراءَ تركضُ من ألفِ عامٍ لتبلُغَ ساحِلْ
ولوناً لهذي الجهاتِ التي انفرطتْ في الصّدى والرّسائلْ
وشِعْراً لدندنةٍ تتعثرُ ما بين نايٍ وبين كمانْ

بعدَ عامينِ من مقْتَلِ المهرجانْ
ورحيلِ القوافلْ

واللغاتُ ثيابٌ برائحةِ البحرِ
حُبٌّ برائحةِ الكَسْتَناءْ
وشمسٌ يقودُ خطاها ولدْ
إلى أزلٍ عالقٍ في أبدْ!!

واللغاتُ ينابيعُ تجري
بحارٌ تسيلُ على جسدٍ ناحِلٍ
قربَ غابةْ
واللغاتُ سحابةْ
عبرتْ بين شمسين عاريتين
ونهدينِ لم يعرفا الحبَّ من قبلُ
سالتْ ففاضَ الهواءُ وقلّبَ في ظلِّها كلُّ أعمىً كتابَهْ
واللغاتُ تحلِّقُ حوليَ مثل الطيورِ
تُعلِّمُني الصمتَ في الضوءِ والكلماتِ الجديدةْ
هـهنا تحتَ هذي السَّماء البعيدةْ

رغبـات

.. إلى آخرِ الأرضِ خُذْنـيَ
يهمسُ غصنٌ لرفِّ طيورٍ غريب
خُذيني، يقولُ السَّحاب لريحٍ، فلا شيءَ في هذه الصَّحَراءْ
خُذيني، يقولُ الجنونُ لأغنيةٍ عابرةْ
خُذيني، فلا شيءَ في مدنِ الصمتِ إلّا الحقيقة والعقلاءْ
خُذوني إلى الضوءِ، يهتف نايٌ لشعبٍ من الغجرِ العابرينَ
خُذيني إلى الشرقِ، يهتفُ حلْمٌ لقُبَّرةٍ لا تحبُّ الضّبابْ
خُذيني إلى ما تبقَّى هنالكَ من أبيضٍ،
للنّوارسِ يهتفُ هذا الغرابْ
إلى شِعْر طاغورَ خُذنيَ، تهمسُ عصفورةٌ، فجأةً، للصباحْ
.. إلى المتنبي تقولُ الخيولُ التي عَلِقَتْ في سهولِ الجراحْ
خُذيني إلى السَّفح، يهمسُ بابٌ لنافذةٍ
منذ عامين تؤلمني العتباتْ!
خُذيني إلى زرقة ليس فيها انحناءٌ، يقولُ لقافلةٍ تعبرُ الدَّربَ منهكةً في الظلامِ، النّخيلْ

أعدْني لبيتيَ، يهمسُ للموتِ، طفلُ قتيلْ

مرور

لا لستَ أكثرَ من يدٍ في موجةٍ أو في ضبابْ
لا لستَ أكثرَ من رحيلٍ ناشفٍ
ومسافرٍ صلّى
ولم يرهُ السَّحابْ
لا لستَ أكثرَ من سنونوَةٍ على أغصانِ ريحٍ
واشتعالٍ مطفأٍ بالفقدِ
أرصفةٍ تصيحُ
بلا لسانْ
لا لستَ أكثرَ من مرورٍ في ضواحي الآن!
.....
الطيبونَ تفرَّقوا من قبلِ أن يتجمّعوا في زهرةِ الليمونِ
أو في البَيْلَسانْ
والعاشقونَ ظلالُهم تجري على جمرٍ
ويأكلُها دخانْ
والحالمونَ بناةُ أشرعةٍ
وبابُ في الجنونِ
قبيلةٌ من مُنشدينَ بلا أغانٍ أو كمانْ
والهائمونَ على ظهورِ قصيدةٍ
لم يعرفوا أنَّ المكانْ
فيهم وفي كلماتهم يجري
كما تجري البيوتْ
من أنتَ حتى تشتكي
أو أنْ تموتْ؟!
لا لستَ أكثرَ من يدٍ في موجةٍ أو في ضبابْ
وحكايةٍ مجروحةٍ فرَّتْ على فرسِ الكلامِ

من الحياةِ إلى الكتابْ

دليل

تجوَّلتُ حتى أضعتُ خطايَ
عبرتُ شوارعَ
لا ضوءَ فيها
أعدتُ الحكايةَ عشرين عاماً
ولا أتذكَّرُ ممن أتوا غيرَ أن الذين أتوا لن يعودوا!!

وعن ساحةٍ ليسَ فيها هنا أحدٌ
غير هذي التماثيلِ قلتُ الكثيرَ
استفضتُ
ارتجلتُ بلا أيِّ خوفٍ
وحين أقاموا هنا في السؤالِ
فتحتُ ثلاثين باباً على دهشةٍ في الإجابةْ
وإذ عطشوا
قلتُ لا بأس، أحْلِبُ هذه السَّحابةْ
ضحكوا، وضحكتُ
وفي ساحةٍ للتماثيل لم يبق غيرُ التماثيلِ في آخرِ الليلِ
والصمتُ غابةْ
رأيتُ كما لا يرى نائمُ
شبحاً للكآبةْ
يقولُ لهذي التماثيلِ شيئاً
يشيرُ إليَّ بعينينِ فارغتينِ ورأسٍ تدحرجَ فوق الرصيفِ وصمتٍ ثقيلْ
ويرحلُ مبتعداً مُتْعَباً مثل أيِّ قتيلْ!!

* * *

قبل يومين في لحظة ناشفةْ
جفَّ نهرُ الكلامْ
تلفَّتَ ذاتَ اليمينِ وذات الشِّمالِ

تساءلَ: أين أنا؟!
في الإقامةِ، أم قبْلَها ، أم هنالكَ بعدَ الرّحيلْ؟!
وفي بحرِ دهشتهم صاحَ:
يا أيها الغرباءُ خذوني إلى منزلي الآنَ
قالَ الدّليلْ!!

شرفة

شرفتي ضيِّقَةْ
لا الحَمامُ يحطُّ عليها مصادفةً، لا،
ولا تصطفيها رياحُ الشَّمالْ
وهْيَ تعبرُ، ما بيَن حينٍ وحينٍ، كأغنيةٍ أو بقايا سؤالْ!

ذاتَ يوم رأيتُ صنوبرةً تتسلَّقُ ثوبَ الهواءِ لتبلُغَ حافَّتَها
فانتظرتُ،
ولكنَّها لم تَصِلْ
مرَّ في ليلةِ الثلجِ، تلك، الأَزلْ
مرَّ فأسٌ وبَرْدٌ نحيلٌ كسيفٍ
وحين صحوتُ
بكيتُ لأن الربيعَ قُتِلْ!

شُرفتي تتدلَّى إذا ما غفوتُ لتبلغَ عُشْباً على طَرَفِ السُّورِ
جُوْرِيَّةً في إناءٍ عتيقٍ
قُرنفلةً تتفتَّحُ في الظلِّ لم يرَها أحدٌ منذ يومين
زنبقةً في قميصِ معلِّمَةِ اللغةِ العربيةِ، جارتِنا
فُلَّةً في الهواء تُلوِّحُ من فوق حبلِ الغسيلِ
لمن ماتَ منذ ثلاثِ سنيْن
شرفتي عَلِقَتْ في الفراغِ كطائرةٍ من ورقْ
وسِلالٍ مُعبأةٍ بالحنيْن
وأنا لستُ أعرفُ هل سوفَ تصعدُ للبيتِ
أم سوف تهبطُ
أُبصِرُها تتأرجحُ، في كلِّ يومٍ، أمامَ البنايةِ
أرفعُ كفّي أُلوِّحُ
لكنّها تستديرُ إلى حائطٍ من حَجرْ

شُرفتي لا تكلِّمُني
شُرفتي ذَبلتْ وهي تحلُمُ، قربي هنا، بالشَّجرْ!
ولكنني حيَن أغفو
تصيحُ: أَفِقْ، أنتَ، ماذا فعلتَ بنا؟!

ذاتَ يوم صحوتُ على صوتِها
فتلفَّتُّ لا لم أجِدْها هناكْ
شُرفتي رحلتْ وبقيتُ أنا
لا الحمَامُ يحطُّ عليَّ مصادفةً لا
ولا تصطفيني رياحُ الشَّمالْ
وهي تعبرُ، ما بين حينٍ وحينٍ، كأغنيةٍ أو بقايا سؤالْ
في منافي الـْ هُنَا

فراغ

مَلِكٌ أنتَ دون ممالكَ
شعبٌ بلا أيِّ أرضْ
عاشقٌ لا حبيبَ لهُ
طائرٌ لا فضاءَ لهُ
ساحلٌ دون بحرْ
منزلٌ دون سقفٍ..
ونافذةٌ لا جدارَ..
وبابٌ هنا أنتَ
ما بين بريّنِ يقتتلانِ على حفنةٍ من سرابْ

شارعٌ أنتَ دون مُحِبِّيَن
صيفٌ بلا راقصيَن
مدىً موثقٌ في الزوايا
صباحٌ بلا أيِّ شمسٍ
عبورٌ طويلٌ هنا في الإقامةِ أنتَ
وريحٌ بلا أُفُقٍ أو جِهاتْ
حياةٌ لها ألفُ طعْمٍ ولونٍ
وليسَ لها في الحياةِ حياةْ
جبلٌ دون سفحٍ
ولا قمةٍ أنتَ
سهلٌ فسيحٌ بلا أي خيلْ
حضورٌ يُقشِّرُ هذا الغياب
ليلْحقَ أغنيةً في ضباب

مآذنُ أنتَ
كنائسُ

كلُّ كتابٍ صلاةْ!

ملاهٍ
وليلُ
ونهرٌ من الجمرِ والرّغباتْ

راكضٌ في الفلاةِ بلا قدمين
وصيَّادُ ريحٍ وجامِعُ برقٍ، ورعدٍ، سحَابْ

طائرٌ موثقٌ بحذاءٍ أنيقٍ
وقبَّعةٍ وبأحلى الثيابْ

شاعرٌ في النهايةِ
دون قصيدةْ
ودون كِتابْ!!

تل الهوى

عبرتْ في البداية نافذةٌ من هنا قلتُ: هل أبصرتْ فرساً حرةً أم أصابَ الجنونْ
بيتَها فوق تلِّ الهوى هـهناكْ؟!!

عَبَرَ البابُ يركضُ من بعدِها
قلتُ هل أبصرَ البابُ شيئاً ولم نرَهُ
غامضاً
قد يكون الصّدى أو يكون الحنيْن؟!

عَبَرَ السَّقفُ تحتَ سمائي ومرَّ خفيفاً كظلِّ سنونوَةٍ فوقَ هذا الجبيْن
لم يردّ السّلامَ، تساءلتُ: ماذا تبقّى لبيتٍ على التلِّ؟!
هل أبصرَ السَّقفُ رفَّ حساسيَن
أم أنهراً من طيورِ البجَعْ؟!

بعد حين رأيتُ جداراً يسير وتسنده الريحُ والعتباتْ
قلتُ ما في الظهيرةِ شيءٌ يُرى
وحده الظلُّ يمشي كثيفاً ، هنا ، مثقلًا كالعَجين!!

بعد ذاك المغيبِ رأيتُ عجوزاً تسيرُ بصمتٍ على مهْلِها
روحُها تتفلّتُ من يدِها مثل طفلٍ شقيٍّ
وألفُ ملاكٍ على ظلِّها
فتذكرتُ باباً ، جداراً وسقفاً
نوافذَ كانت تبوحُ لنا كلَّ ليلٍ بأسرارها
هل يُعيدُ لها البيتُ، لو واحداً، قلتُ، ممن أضاعوا السواحلَ حتى يعودوا بلؤلئها ؟!
- أنتَ، من أنتَ قالت؟
- ترددَّتُ...
كنتُ الغلامَ الذي فرَّ من مِلْحِها ذاتَ يومٍ
ومن عسلٍ لا حدودَ له في هبوبِ الحريرِ بلفتَتِها

كلُّ عشاقها أبحروا، رجعوا
ثم عاشوا طيوراً، وماتوا خيولًا
وما زلتُ أَذْرعُ هذي الشوارعَ عرضاً وطولًا
أُحدِّثُ نفسي
ليسمعَ غيري
بأنيَ آخرُ عشاقِها!!

يد

يدُها صباحُ دائمٌ
شمسٌ لأعراف الخيولْ

يدها الحمامةُ
إذ تحلّقُ في مديحٍ أبيضٍ
يَعِدُ الغيابَ بأن يعودَ إلى الهديلْ

يدها سلامٌ في الحنين ينامُ
ينهضُ
في انبثاق جمالها
من بين أغنية البساطةِ والغناءِ المستحيلْ

يدها أنوثةُ بَجْعَةٍ في روح تشايكوفسكي
تسيرُ على ضفافِ النّهر راقصةً هنا
من فضةٍ تكسو الضّحى العالي
إلى ذَهَبِ الأصيلّ

يدها حُوارُ فراشةٍ وسحابةٍ
وعِناقُ نورستين في حلمٍ جميلْ

يدها تَقَلُّبُ مُهرةٍ في سِحْرِها
عصفورةٌ في الفجرِ تغزلُ أفقَها
وتُنَظِّفُ الروحَ الوحيدةَ من بقايا الأمسِ
والليلِ الطويلْ

يدها طفولةُ شاطئٍ
نزلتْ إليه صَبِيَّةٌ للمرَّةِ الأولى
تُعَلِّمُهُ الكلامَ

وبعضَ أشياءٍ تُقالُ ولا تُقالُ
وطعْمَها
طعمَ اندفاعِ الصّدرِ والخصرِ النَّحيلْ

يدَها استراحةُ وردةٍ
وجَدتْ فتوَّةَ تاجِها بين الأصابعِ
ساقَها المشدودَ مثلَ السَّهمِ
ما بين الإقامةِ والرحيلْ

يدُها ارتعاشةُ شمعةٍ في ليلةٍ عسليةٍ
في غابةِ الأبنوس حوْل ندى يفورُ
ونخلةٍ تعلو وأفراحٍ تسيلْ

يدها تذكّرني بقلبي
كلَّما مرَّتْ ببالي
قمتُ أعدو نحو نافذتي حصاناً
ثم أَشرعُ في الصَّهيلْ!

النحيلات

الصبايا النحيلاتُ
ذات الصبايا النحيلاتُ
في غير منفىً
وفي غير عاصمةٍ
وعذابْ!
مررنَ بنا دون أن ينتبهنَ لحرقةِ أسمائنا
وهي تبحثُ عن دفترٍ
لتُقيمَ به نصفَ منفىً أليفٍ ونصفَ وطنْ
النساءُ النحيلاتُ
قلن الكثيرَ عن الأغنياتِ التي تتكاثرُ
كالعشبِ في طرقاتِ الصِّبا
وتنزَّهنَ بين احتراقاتِنا كالمياه الأخيرةِ
لكنَّهن غضضنَ الكلامَ
تذكَّرنَ ما لا سنذكرهُ
ونسيَن الزمنْ
النساءُ النحيلاتُ..
قُلْنا لهنَّ كلاماً بلا أيِّ معنىً
بلا أيِّ لونٍ
بلا أيِّ رائحةٍ وترَكْنا على وجههنَّ السَّلامَ
وسِرْنا وحيدينَ
من ساحلٍ في بحارِ الشَّمالِ
إلى جبلٍ في ضواحي عدنْ!

أنتَ!!

أنتَ فيهم جميعاً
ولكنك الآن وحدكَ
في صمتِهم
والأيادي إذا ما أشارتْ إلى النّجمِ
أو ذبُلتْ في القميصِ كيومٍ مضى دون عَوْدةْ
أنتَ فيهم إذا ما أطلُّوا كبحرٍ
أو اختبأوا مثل قلبٍ بوردَةْ!
ذات يوم توضأتَ بالنُّور، صلَّيتَ
هل كنتَ روحاً إذنْ
أم جسدْ؟!
وكنتَ الجميعَ إذا ما تلاشوا
وإن أشرقوا كنتَ هذا الأبدْ
وشمسَ المَوَدَّةْ
وبالغْتَ حتى حدودِ البساطةِ
ثم تساميتَ
إيمانُهم أنتَ
جنَّتُهم أنتَ
أكثر من كلِّ هذا
ورِدَّةْ!!

سيد الليل

لهُ تحتَ نافذتي ياسمينٌ
له قربَ بابي صلاةٌ
وفوقَ جداري الوحيدِ له ذكرياتٌ
لهُ في حديثي الطويلِ عن البحرِ بحرٌ
له في كلامي النخيلُ الذي لم يَطُلْ هكذا
قبل أن يخلقَ الله هذي البناتِ!
له ساعدي إذ يُلوِّحُ لي
ثم يذبُلُ كالنوّرِ في شرفاتي
له وجْهَتي
وتهجُّدُ كُفْري!
وشكُّ صلاتي!
له كلُّ ما كانَ
ما سيكونُ
له صَبَوَاتي
وخطوي الذي يقتفي خطواتي!
لماذا إذاً لا يجيءُ على مَهَلٍ
ويدقُّ برفقٍ مساءَ البيوت
وكمْ مرَّةٍ سنطمئنهُ:
كلُّ أسبابِ ميتتِنا حولنا
ولكننا،
في انتظاركَ نحيا
لنشهدَ، لو مرَّةً واحدةْ
كيفَ، يا سيدَ الليل، سوف تموتْ!!

المَول

ذات يومْ
لم تكن هذه الأرضُ للبيعِ
أو هذه الريحُ فوق تلال الصَّنوبرِ
أو ساحلُ البحر، والبحرُ أيضاً
ولم تكن الذِّكرياتُ
الحكاياتُ للبيعِ
والأمُّ والأبُ أولادُهُم
وأنا، أنتِ، أنتَ
وهذى الحديقةُ للعاشقَين
وما قد تبقّى هنا في الممراتِ من صِبْيَةٍ يلعبونَ، عجائزَ
أو من مشاةْ
الجيوشُ، الملاعبُ
والمنشِدونَ
الحنيُن، العِبادُ ونافورةُ الحبِّ والأمنياتْ
لم تكن هذه الحربُ للبيعِ
والسِّلْمُ أيضاً
ولا حبَّةُ الأسبرين الأخيرةُ
أو مَنْ ينامَ قتيلًا وينهضُ حياً هنا في سريرِ الشِّفاءِ
ولا منظرٌ واسعٌ ليس للناس، في آخر الأمر، شيءٌ سواهْ
لم تكن نجمةٌ في المساءِ
ولا عُشبةٌ في الصَّباحِ
ولا زهرةٌ في الخريف تذكَّرتِ الحبَّ، للبيعِ
لا، لم تكن هذه الشمسُ للبيعِ
والليل أيضاً
ولا قبةُ البرلمانِ

ولا الأغنياتُ، وعينا الحصانِ
ولا ضَحِكاتُ الصغارِ ولا دمعُهم
لا، ولا الحلمُ للبيعِ
هذا الخريرُ الذي لم يزلْ يتردّدُ
بعدَ ذبول المياهْ!
لم يكن صوتُ هذا المؤذِّن للبيعِ
لا، لم تكن هذه الكلماتُ الفصيحةُ للبيعِ
أو رحمةُ الله في الصَّلواتْ

أين تبكي إذا ما تَذكَّرتَ هذا
وتصرخُ، لم تبقَ حتى فَلاةْ!!
أين تحيا إذا ما أردتَ الحياةْ؟!

نغمات

- هنالكَ نايٌ على طرفِ الكأسِ
قالَ، لهذا بكيتُ
: أكانَ له طعمُ نايٍ إذنْ؟!
- لا، مذاقُ قتيلْ!

- هناك كمانٌ على طرفِ الحلْمِ
قالَ، لهذا صحوتُ
: أكانتْ لطعمِ الكَمانِ إذنْ لذْعةٌ؟
قالَ لا، بل ضياع السَّبيلْ!

- هناكَ على كتفِ الريحِ عُوْدٌ
لهذا فزِعتُ
: أكانتْ له بحَّةٌ
قالَ لا، بل عويلْ!

- هناكَ بيانو على شاطئِ البحرِ قالَ
لهذا عدوتُ
: أكانتْ له خطواتُ بيانو على الرَّملِ
- لا، بلْ تذكَّرتُ
أنَّ الطريقَ طويلْ!

مفارقات

هنا أُفقُ عالقٌ بسحَابةْ
طريقٌ هنا عالقٌ بخطى هِرَّةٍ
ومحيطٌ بصنّارةٍ
رجلٌ محترمْ
عالق بإشارةْ
وفلسفةٌ ببقايا بِشارَةْ!
ونسْرٌ بأرنبةٍ
وثلاثونَ طيراً محلقةٌ بجنا حِ ذبابةْ!
هنا جبلٌ عالقٌ بحجرْ
يتدحرجُ في الليل للمنحَدَرْ
وهنا ضحكٌ عالقٌ بالكآبةْ

والتواريخُ غابةْ!!

شجرة التوت

شجْرةُ التوتِ في حَوْشِنا
لم تكن في الحقيقةِ شجْرةَ توتْ
كانت امرأةً تستظلُّ بنا وتخافُ علينا
لنا في يديها بيوتٌ
على كتفيها بيوتْ
ولها طائرٌ كلَّ يومٍ يحطُّ على عاليَ الغصنِ
لا، لم يقلْ أحدٌ ذات يومٍ لنا: إنه قلبُها
نحن نعرفُ ذلك
كان رقيقاً
ومشتعلاً مثل بحر صغيرٍ على باب أمنيةٍ لا تموتْ

قال لي صاحبي وهو يسمعهُ
هل نُغنِّي له؟
هل سنصطادُه آخرَ الأمرِ
حين نَمَلُّ الغناءَ؟!
(.. اقترحْ بعضَ ما تشتهي
فاقترحتُ عليه السُّكوتْ) [1]

ذاتَ يوم صحَوْنا
الجدارُ يدورُ
أسرتُنا
بابُنا
الصَّمتُ والثرثرةْ
لم تكن ههناك، ولا قلبُها الطائرُ، الشَّجَرةْ
ظلُّها في الفراغ يدورُ كطفل يتيمٍ ويسألُ
أو مثل أغنيةٍ أرملةْ

لم يكنْ في الإجابةِ لو بعضُ ماءٍ ليرتاحَ
من ظمأ الأسئلةْ
بعدَ يومين غابَ
وحين صحَوْنا ارتبكنا
سألنا كطفل يتيم وتُهنا كأُغنيةٍ أرْملةْ!

من بعيد أتى خائفا، صاحبي: أينه؟
حَوْشُكُم!

بعد عشرينَ عاما تكلَّمَ
قال أبي:
شجْرةُ التوت، لا لم تكن شجْرةً
وبكى..
تلكَ جدَّتُكمْ!

الجنرال صديقي!

إنه الجنرالُ
ولكنَّه كصديقي تماماً
يحبُّ النبيذَ وباختيَن، ماركسَ،
وتفتِنُهُ السينما الآسيويَّةُ
لكنه مُغرمٌ دائما برعاةِ البقرْ
ويحبُّ القراءةَ مثل الكتابةِ
والرَّحلاتِ البعيدةَ
لكنّه حين يرجِعُ يلعنُ يومَ السَّفرْ!
وله في مديحِ التبسُّط والزُّهدِ قولٌ كثيرٌ
وفي عزلةِ الناسِ أنشودةٌ
لا يحبُّ الظُّهورَ
وليسَ هنا مثلهُ من ظَهرْ!
لن يحبَّكَ إنْ لم تكنْ ظلَّهُ
تتفقَّدُهُ بين حين وحين
تردُّ العواصفَ عن قلبهِ وتزيلُ الضَّجرْ
ليسَ يعنيهِ إن كنتَ تزحفُ حتى على مقلتيكَ
إذا ما أرادكَ فوق مخدَّتهِ ساهِراً
وإذا كنتَ أعمىً
سيطلبُ منك النّظرْ!
وإنْ لم تُطعْهُ
سيحذفُ اسمكَ من أبويكَ!
ويغضبُ حتى يريكَ سَقَرْ!
إنه الجنرالُ
صديقي
يحبُّ الجميعَ ولكنّه لا يحبُّ أحدْ!

يُدافعُ عن حقّنا في الكلامِ
وعن رأينا في السماءِ !!
وعن رأينا في البشرْ!
وعن حقِّنا في الجَمالِ
وعن حقنا في الحنين
وفي العشقِ والريحِ
عن حقِّنا أن نعيشَ أُناساً جِباهاً
وحين نموتُ، نموتُ وقوفاً ككلِّ الشَّجرْ
ذاتَ يومٍ تجرأتُ
حين نظرتُ إليهِ بعينين مفتوحتين
وكنّا وحيدَيْنِ أو شبهَ ذلكَ!
قالَ استمعْ يا قصيرَ العُمُرْ!
لن يُغنِّي على بابِ بيتكَ طيرٌ
ولا قمرٌ في الليالي
ولن يصطفيكَ نسيمٌ ولا جدولٌ أو بَحَرْ
أُعريكَ من كلِّ شِعْرٍ ونثرٍ
ومن كلِّ أنثىً وكلِّ ذَكَرْ!!
وأطردُ حقلَكَ من جنَّتي
وصباحَكَ من وردةٍ ووترْ
سأسكبُ غيمي هنا في البحارِ
لتخبو وحيداً كصحراءَ قالْ

إنه الجنرال
ولكنه ليسَ غير صديقي
الذي يُرسِلُ الغيمَ حيناً
وحيناً يكونُ القَدَرْ!!

انتصارات صغيرة!!

ظلالُ الصَّنوبرِ للمتعَبين وللمُتعَباتِ

الشّبابيكُ، والشرفاتُ،
الأحاديثُ ما بين قلبين طفلين، في الفجرِ، للخادماتِ

سطوحُ المنازلِ للحارسِ الفَهدِ،
شمسُ النهار، نجومُ السَّماواتِ للعاشقيَن وللعاشقاتِ
وحُمَّى الديوكِ التي تتطاير مجنونةً
خلف تلكَ الدجاجاتِ!!

أما الحديقةُ في القصْر!
زهرُ الحديقةِ،
للعاملِ الكهْلِ
ذاكَ الذي يتقصَّفُ مثل الغصونِ وحيَن يرى بُرْعُماً يبتسِمْ!

الصباح الذي تفتَحِهُ الحساسيُن
للقرويِّ الحزينِ

انزلاقُ السماءِ كطفلٍ على التّلِّ للغَنماتِ
وراعي الغنمْ!

السهولُ التي تتسابقُ كالخيلِ كي تبلغَ النهرَ، للخيلِ،
للنَّسر كلُّ الفضاءِ وما يَشتهي من قِمِمْ

الأغاني التي تُستعادُ بلا تكنولوجيا
وتُحفَظُ عن ظَهْرِ قَلْبٍ
وتحيا كما الناسِ، للناسِ، في الناسِ
لحماً ودمْ

الحوارُ الأليف على عتْبةٍ بين سيدتين معمَّرتين
يفيضُ ويجري كما النَّهرِ
في آخرِ الأمرِ سوف تنامانِ
لكنّه، مذْ تصاحبتا ، أبداً لم ينَمْ

ثَمَّ موتٌ كثيرُ
يدورُ ويلتفُّ من دونِ قلبٍ كراعي بقَرْ
يُغلقُ الأفْقَ يرمي على البشرِ الطيبين حبالَهْ
ولكنَّهم يعشقونَ ويبتسمونَ ويحيَونَ

في الأرضِ لما يزلْ،
في الحقيقةِ، بعضُ العَدالةْ!!!

حقائق

.. وإذا وصلتْكِ القصائدُ
تلكَ التي قد بعثتُ إليكِ
فلا تفتحي البابَ قولي لها إنكِ الآن عندي!
في الطريق إليَّ ستكتبُ هذي القصائدُ شِعراً جديداً
وأجملَ منها
إذا ما رأتكِ هنا، لو خيالًا،
ندىً فوق زِنْدي!

عشتُ عمري كثيراً بغيري،
كثيراً بشِعري
وتَوْقي لخطوِ الجمال على أرضِ روحي
كثيراً بما قد عثرتُ عليه هنا فيَّ
عشتُ كثيراً بفقْدي!!
وعشتُ الذي مرَّ قبلي وبعدي!
وفي كلِّ أرض تتبَّعتُ ظلَّ جوادي
وكنتُ أرى الناسَ ترجعُ من كلِّ صيدٍ محملةً بالوعولِ، الطيورِ، النّمورِ
ويسألني سائلٌ منهمُ: أين صيدُكَ؟!
أهمسُ:
يا صاحبي رحلةُ الصَّيدِ صيدي!
أمرُّ خفيفاً على الأرضِ
لا الروحُ تجرحُ زنبقةً، لا،
ولا القلبُ يتركُ أغنيةً في الصقيعِ تموتُ بلا مُنْشدٍ
أو بطعْنةِ بَرْدِ
ولا شجراً ذابلًا يكتبُ الكلماتِ ويُرسلُها للغيو
ويذرفُ آخرَ أوراقِهِ الخُضرَ تحتَ نوافذِ بيتي
هنا فوق خدّي!

ولا واحةً في الأنين البعيد تُقيمُ
ولا نخلةً طفلةً تتعثرُ في طُرُقِ الموتِ دون دليلٍ
وفي ظُلْمةٍ دونَ حَدٍّ
ولكنني عشتُ هذا وهذا وهذا برغُم كثيريَ وحدي!
كان لا بدَّ أن تعبري فجأةً
كي يكون لهذا الذي قلتُهُ شبهُ معنىً
وأعرفُ أنّي هنا لم أزلْ أخضراً تحتَ جِلْدي

إذا وصلتكِ القصائدُ
تلك التي قد بعثتُ إليكِ
فلا تفتحي الباب قولي لها إنكِ الآنَ عندي!!

خروج

حَجري كان يمكن أن يبلُغَ التلَّ
أو يعبرَ الفجرَ سهماً
يلامسُ غيماً خفيضاً
وبرقاً تُقلِّبهُ الريحُ لم يُوْلَدِ

خطوتي كان يمكنُ أن تعبرَ السَّهل مثل حصانٍ فتىً
فتلامسُ خطَّ النهايةِ
ترجعُ
حاملةً فوق أكتافِها مُهرةً من غدي

ضحكتي كانَ يمكنُ أن توقدَ العرسَ
في حجرينِ يتيمينِ

صوتيَ كان يقودُ الطيورَ إلى بيتنا
كنتُ راعي الطيورِ الذي لا يُشقُّ لهُ أفقُ
ورفيقَ اليمامةِ والهُدهُدِ

وجْهَتي كان يمكن أن تتجمَّعَ فيها الجهاتُ جميعاً
فلا الشرقُ شرقُ
ولا الغربُ غربُ
هنا في الشَّمالِ جنوبُ
هنا في الجنوبِ شمالُ
فكلُّكِ أنثى
وكلّيَ قلبُ
وفي الحبِّ بوابةُ الأبدِ

.. وزمانيَ لا لم يكنْ مثل هذا
ولا مَشْهَدي

كنتُ عانقتُ كلَّ البلادِ التي
مطراً في الظلامِ مررتُ بها
أو شهيداً
أفتّشُ عن بلدي

وعشِقتُ الكثيراتِ لكنْ ذراعيَّ لم تحضُنا، أبداً، غيرها
ابنةَ الأحدِ!!

ها هنا جسدي ذابحُ جسدي
ويدي لا تصافحُ حتى يدي

فكأني عدوّانِ يلتقيانِ على نهرِ دَمٍّ بلا موْعِدِ

وكأنيَ، لا، لم أعشْ كلَّ ذاكَ
كأني خرجتُ لأبتاعَ شيئاً بسيطاً، ثِقاباً،
ولم أَعُدِ!!

قناعات 1

أنامُ وأصحو إذنْ ذاكَ يكفي
أسيرُ إلى آخر الحيِّ ثمَّ أعودُ
إذنْ ذاكَ يكفي
أُحادثُ سيدةً في الطريقِ إلى السوقِ
يكفي
وأبتاعُ ربطةَ فِجْلٍ، بلا سببٍ واضحٍ، ذاكَ يكفي
أرى مشهداً ناعماً في نهايةِ فيلمٍ عن الحبِّ يكفي
وأسمعُ عشرَ قصائدَ، لا، ليس فيها سوى بيتِ شِعْر وحيدٍ.. ويكفي
وأذكرُ مما مضى كلَّ شيءٍ
وأعني هنا الحُلوَ والمرَّ مختلطين بلا برزخٍ، ذاك يكفي
فلا أتوقَّعُ شيئاً هنا من خريفي
الذي يَحتفي بالغيابِ ويُضْفي!
ولا من طريقي الطويلِ إليَّ ووحشةِ ضَعْفي
ولا من أمامي الذي صارَ خلْفي
وجسمي الذي صرتُ أدعوه طيفي!
ولا من صديقي الذي حينما قتلونيَ عادَ إلى بيته فرِحَاً
بثيابي وقلبي وشِعري وشَعْري وكفّي
ولا أتوقَّع شيئاً هنا من طيورٍ تحطُّ عليَّ لتنقُرَ حبةَ عَينِي
وتنهش كتْفي

أنامُ وأصحو إذن ذاك يكفي

وأن تعبري من هنا صدفةً ذاك يكفي
لأمشي بلا خجلٍ خلفَ كلِّي
الذي كنتُ أدعوه بالأمسِ نِصْفي!!

قناعات 2

كلُّ شيءٍ كما ينبغي أن يكونْ!!

النهارُ هنا طيبُ
والحرارةُ ضمنَ معدَّلها السَّنويِّ
الهواءُ نظيفُ
وليستْ هنالكَ أيّ رطوبةْ!

الشوارعُ لا بأسَ، أوسعُ من خطونا
والرصيفُ عريضُ ويكفي صديقينِ أو عاشقينِ
وسيدةٌ خلْفَها ولدَانِ وتسْعُ بناتٍ
ولما تزلْ في أعالي الخُصوبةْ!!

الطيورُ التي لم نكنْ في القديمِ نراها هنا
فوقَ أسطحنا وحوافِّ نوافذنا تتقافزُ باحثةً عن رقائقَ كانت تُسمّى البطاطا
على بُعْدِ شبرينِ منّا تحدِّق في وجهنا
وتُغنّي لنا
لم تعُدْ خائفة!!

الحروبُ التي اندلعتْ في ثيابِ أبينا
وقامةِ جدَّتنا
ومضتْ للبعيدِ مُحمَّلةً ببقايا ابتساماتِ أطفالنا
تتردّدُ مثل الصّدى في الليالي
وفي الفجر تصمتُ
لا نتذكَّر مَن عادَ منها
ولا نتذكَّر مَن ماتَ فيها
هنا ارتفعتْ نُصباً وتماثيلَ، أوسِمةً
وأناشيدَ تصعدُ ريانةً

تتنقَّلُ من شَفَةٍ لِشَفَةْ!

الرِّجالُ الذين رَمَوْنا إلى الموتِ
يبتسمونَ لنا كل يومٍ على شاشةِ التلفزيونِ في الصُّحفِ،
الطُّرقِ، الشُّرفاتِ
ولا يحلمونَ بأجسادنا وهي تُطحَنُ في ليلهمْ
قد قَبِلْنا بما تركوهُ لنا من جراحٍ لنزهو بها
أو نعيشَ
مصادفةً، كالظِّلالِ، على الأرصفةْ!

البلادُ التي أخذتْ حصةَ الرُّوحِ من أجملِ العمرِ
عرسَ اليتيمِ
ولقمةَ خبزِ الفقيرِ
وتلْويحةَ الأمهاتِ لأبنائهنَّ على طرقاتِ النَّفيرِ
وكلَّ المقابرِ كلَّ الأكاليلِ
عادتْ لنا من جديدٍ
وأغفتْ على سورنا شجراً يابساً وظلالًا رماديةً
وزنازينَ طيبةً مُرْهَفَةْ!

والكلابُ التي كانَ وقْعُ خُطاها
كوابيسَ في لحمنا
هـهنا تتجوّلُ عند المساءِ بلا عُقَدٍ
وكأنَّ الذي بيننا الآنَ أكثرَ من (مَعْرِفَةْ)!!

كلُّ شيءٍ كما ينبغي أن يكون!!
ولكنْ، لعلَّ، وأعني هنا...
ربما ينقصُ المرءَ بعضُ الجنونْ!!

أبجدية

مرَّ ذاتَ مساءٍ سنونو
فصحتُ على عتبةِ الدارِ:
يا جدتي
تلكَ أغنيتي!!
همسَتْ لي: صدقتَ
وقالتْ كلاماً كثيراً عن الطَّيرِ
ثم استدارتْ، أشارتْ إلى ضحكةٍ - طفلةٍ
سألتني: وما تلكَ؟!
قلتُ لها: وردتي!
ومن يومها
لا أرى أيَّ شيءٍ بلا لغتي!:
النَّمْرُ طفلُ الرُّعودِ العظيمةِ
والفهدُ أسمُ عميقٌ يدلُّ على ليلتي
والفراشةُ لمسةُ كفيكِ في الفجرِ
قبلَ الشُّروقِ بخمسِ دقائقَ
والنهرُ خطِّي الذي ينحني
صاعِداً هابِطاً
والوعولُ على جانبيهِ هناكَ معلِّمتي
الرّيحُ وجهَةُ كلِّ الجهاتِ
التي تتجمَّع في جِهتي
شجرةُ التوت حُلْمي الذي أتسلَّقُهُ دون خوفٍ
عبورُكُ من حيثُ كانَ إلى حيثُ ما لستُ أعرفُ
يا امرأتي: قِبْلتي
الدربُ، نَصِّي الطويلُ
الذي أنتهي وهْوَ لا ينتهي

وحنيني إلى كلِّ ما فيكِ من عسلٍ: قامتي
ولمعنى وجودِكِ معنىً كثيفٌ ومتَّسِعٌ
مُربكٌ، آمنٌ، فاتنٌ، غامضٌ، ساحرٌ، هادئٌ، عاصفٌ،
ليس حقلي كما قد تظنِّين، لا، إنه غابتي
الأرنبُ المتقافزُ بين الثعالبِ ابني
الغزالةُ بين الذِّئاب ابنتي
العشبُ نصفُ سريري
الهواءُ حريري
الضباعُ التي تترصَّدُ وعْلًا
على جدولِ الماء: خوفي
التفاتتُهُ نحوَها: جرأتي
الصَّقرُ والنّسرُ: أهليَ
والقمرُ البِكْرُ: سهليَ
والضوءُ والحبرُ: ظلِّيَ
والنسمةُ المطمئنّةُ في خصلةِ الشَّعر: عاصفتي

مرَّ ذات مساء سنونو فصحتُ على عتبةِ الدار:
يا جدتي
تلكَ أغنيتي
همستْ لي: صَدَقتَ
وقالتْ كلاماً كثيراً عن الطَّيرِ
ثم استدارتْ، أشارتْ إلى ضحكةٍ
سألتْني: وما تلكَ؟!
قلتُ لها: وردتي
ومن يومها
لا أرى أيَّ شيءٍ بلا لُغتي

وضوح

لا أُفسِّرُ شَعراً يطيرُ على كتفينِ جميلين
أو شجراً راكضاً في السّهولِ على قدمين
ولا نجمةً ولِدَتْ في النهارِ
ولا جسداً تشتهيه البحارُ
ولا قهوةً في صباحٍ جميلٍ
ولا مهرةً قطعتْ زمنين
ولا وردةً فتَّحتْ في قميصكِ
أو قمراً في الجبين اللُجين
ولا وجهةً تبِعَتْها الجهاتُ
ولا جدةً حسدَتْها الحفيداتُ
أو وجهَ طفل رأته القصائدُ فاندفعتْ خلْفهُ، والصلاةُ
ولا طائراً أَلِفَ الكتفيْن

لا أُفسِّر وغْلًا طريداً هناكَ
ولا قاتلًا مطمئناً هنا
لا، ولا غرفةً وسِعتْ نصفَ شعبٍ
ولا مهرةً في المدى (ميجنا)
أو صهيلَ حصانٍ بلا مُقلَتيْن

لا أفسِّرُ حرباً بحربٍ
ولا وردةً كبرتْ فجأةً بين دبابتين
هنالكَ في هدنةٍ هشَّةٍ
فرآها الجنودُ، بكوا...

لا أفسِّرُ موتاً بموتٍ
وسِنّاً بسنٍّ
وعيناً بعَيْن!!

ملاحظات

لا أُصدِّقُ من سيموتُ
أُصدِّقُ من سوفَ يولَدْ
كلُّ ما قيلَ من قبلُ
ليس سوى هوةٍ في الكلامِ
ونافذةٍ لا تَرى أيَّ شيءٍ ونجمٍ مقيّدْ

لا أصدِّق سيدةً تتحدّثُ عن عاشقيها
أصدَّقُ من تنزوي في المساءِ
كأغنيةٍ تعبتْ من صدى خَطْوها في ممرِّ الجَمالِ
أصدِّقُ شَعرا كما ذيلِ مُهْر على عُنُقٍ أبيضٍ يتوقَّدْ
وفطرةَ نظرتِها وهْيَ تَعبُدُ أو وهْيَ تُعبَدْ!

لا أُصدِّق هذا الحديدَ ولو صارَ عسجَدْ!
وأُصدِّق هذا الزواجَ المباركَ بين الحريرِ وبين الأنوثةِ
إذ يتجسَّدْ
قمراً هـهنا، موجةً هـهناكَ،
وفي الرّوح مَعْبَدْ
وأصدِّق ما لم تقلْهُ الحديقةُ
للورْدِ بعد تفتُّحهِ
للأراملِ في باحةِ الأربعيَن
لنهدٍ كرمانةٍ يتصدَّعُ من شوقهِ لشفاهٍ ويَدْ
وأصدِّق في كلِّ طيرٍ يطيرُ
ارتباكَ الجناحِ أمامَ نوافذَ مغلقةٍ وعجوزٍ تموتُ بلا ضجةٍ فوق مقعَدْ

وأصدِّق في الغربِ حزن الهنود على خيلِهِمْ
وجواميسِهِمْ
لا الفضاءَ المُعبَّدْ

وفي الشَّرقِ ما كان أصفى وأبسطَ، أعلى، وأبعدْ

لا أصدِّقُ إحدى وعشرين طلقةَ نارٍ
على قبرِ هذا الشهيدِ
هناكَ ثلاثونَ في صدرهِ
لا أصدِّق أعيَن قاتلهِ في الجنازةِ تبكي وتحكي وتَشْهَدْ!
لا أصدِّق غير عيونِ ابنتيهِ وزوجتهِ
والفراغِ الذي يتكاثرُ في غرفِ البيتِ
في صمتهنَّ وصورتهِ
وتردُّدِ خُفَّيهِ تحتَ السَّريرِ أمام ارتباكِ منامتهِ
قلبُ هذي الليالي كما الليل أسودْ!

لا أصدِّقُ كلباً ولا جنرالًا
أصدِّقُ وجْهَ قتيلٍ تعدَّدْ

لا أصدِّق هذي البلادَ
ولا كلَّ من يحملُ اَسْمَ سعيدٍ
وعاشَ حزيناً
فأنجبَ طفلًا وسمّاه أسعدْ!!

لا أُصدِّقُ، بل سأُصدّق نفسي
إذا ما وعدتُ بأن أتعقَّل أكثرَ من كلِّ هذا!!
وأحيا أنيساً، هنا في الخرابِ، كعاصفةٍ
وبريئاً، هنالك في غابتي، مثل فهدْ!!

حلب

بعد شهرينِ من ذلكَ الليلِ
جاءتْ (حَلَبْ)
المدائنُ تمشي كما الناس صَدَّقتُ هذا
كما صدَّقتْ راحتي دائما كرزاً وعِنبْ!!
كانتِ الحربُ بينهما دُوَلٌ:
من بهِ لهبٌ فوقَ كلِّ لهبْ؟!

طَرَقَتْ بابَ بيتي
انتبهتُ
ولكنّني قلتُ من يطرقُ البابَ في مثلِ ليلٍ كهذا؟!
الشوارعُ تجري
وفي الغيمِ، أسمعُهُ من بعيد، قطارَ الغضبْ
طرَقَتْ مرتينِ
وبعدهما عمَّ صمتٌ
فأيقنتُ أن البنفسجَ لن ينحني أبداً لعذابِ القَصَبْ!
نمتُ، أو شبه ذلك، مثل الرِّياحِ
أتغفو الرّياحُ إذا سَكَنتْ؟!
هل تُرى تتذكَّرُ ما تركتْه لها من حقولٍ لتلهو:
السُّحبْ؟!
لستُ أعرفُ كم، بعد هذا، من الوقتِ نمتُ، كما لم أنمْ
نصفُ عينيَّ وجْدُ وما قد تبقّى زغَبْ!
خطْو ريشةِ شحرورةٍ في الممرِّ سَمعتُ
أخفُّ،
احتكاكَ قميصٍ بنهدِ فتيٍّ
مرورَ قرنفلةٍ فجأةً عبر قَلْبْ
ورائحةً لصدى ضحكةٍ لم تَغِبْ

رَفَعَتْ بجناحِ الفراشةِ طَرْفَ غطائي ونامتْ إلى جانبي
مثل نهرٍ صغيرٍ
ولم أفتح العيَن حتى أرى
تعرفونَ السّببْ!!
فالمدائن تمشي كما الناسِ صدَّقتُ هذا قديماً
كما صدَّقتْ راحتي دائما كرزاً وعِنبْ
كانت الحربُ بينهما دولٌ:
من به لهبٌ فوقَ كلِّ لهبْ؟!

قبلَ شهرينِ من كلِّ هذا وصلتُ حَلَبْ
بعد شهرين من كلِّ هذا
على الأرض لم تكُ إلا حَلَبْ!

القبرة

نصفُ روحيَ كانتْ ولّما تزلْ هذه القُبَّرةْ
عَدَوْنا معاً في السهولِ وطِرْنا
وعلَّمتُها حِيَلًا ليسَ تعرفُها القبَّراتُ
كما علَّمتْني دروبَ النجاةِ

وسرنا يداً بجناحٍ معاً دون خوفٍ
على أعينِ الكلبِ والضبّعِ والثّعلبِ المترقّبِ والظُّلماتِ

كتبْنا على الرَّملِ شيئاً وفي أُفق ضيِّقٍ
قد رسمْنا
نجوماً، وأكثرَ من ألفِ شمسٍ
بلاداً بلا عسكرٍ وطغاةٍ

وكنّا طريين أعرف هذا
ولكننا حين نحلمُ نخرجُ للفلواتِ
نُحدِّقُ في الأرضِ ندعو الجهاتِ:
لكِ الشمسُ أنتِ!!
وأنتِ لكِ البحرُ !
أنتِ النجومُ!
وأنتِ لكِ الريحُ
نُعطي
ونأخذُ ما قد تبقَّى: الحياة التي امتلأتْ بالحياةِ

فنلعبُ في النِّيل حيْناً
وحيْناً نطيرُ به لضفافِ الفُراتِ
ونحملُ بغدادَ حتى الجزائرَ
بيروتَ حتى أثينا

وروما إلى القُدْسِ

أَصْلُ المدائنِ زيتونةٌ كَبُرتْ في الصَّلاةِ

نصفُ روحيَ كانت ولما تزلْ هذه القبَّرةْ
إنْ على قُبَّةٍ غردَّتْ أو على كتفٍ عشَّشتْ
أو على حجرٍ قانعٍ، بيَّتتْ، في الفلاةِ

لا يراها سوى من رأى روحَهُ
فوق رأسي تُحَوِّمُ، تعلو، وتهبطُ
أما إذا حلَّقَتْ في البعيد فأهمسُ:
إن الزمانَ تغيَّر فانتبهي يا فتاتي!!

مسائل عالقة 1

جنرالُ يحبُّكَ أو لا يحبكَ
لا بأسَ في هذه المسألةْ!
قد يُقصِّرُ عُمْرَكَ
أو تنتهي سيِّداً لزهورِ حديقةِ بيتكَ
أو جثّةً فوق أرصفةِ الموتِ أو مزبلةْ
.. فراهنْ على وردةٍ فيكَ دوماً
ولا تَقُلِ الدَّربُ ما أَطْوَلَهْ

ناقدٌ قد يحبُّكَ
أو لا يحبُّكَ
لا بأسَ
أو يفتحِ الكونَ حتى تطيرَ
وتعلو على كلِّ مَنزِلةٍ مُنْزَلَةْ!!
ليسَ يعنيكَ هذا إذا لم يكنْ بجوارِكَ
حين تسيرُ على خطِّ ضَوءٍ
وتمتدحُ العشبَ في كلِّ أرض وهذا الجمالَ ومن أشعَلَهْ
فلْتَرْتَدِ الروحَ جسماً، وقلبكَ
لا ذلكَ الثوبَ: إن فَصَّلَهْ
ولتكن في الهوى شَغَفاً نَضِراً
يحتسي خمرَهُ في أعالي البراءةِ، صحوَ الأيائلِ
والوجْهَةَ الثَّمِلَةْ!!

امرأةٌ قد تحبُّكَ أو لا تحبكَ
لا بأسَ
حاذرْ بأن تكرهَكْ
تلك مسألةٌ ليسَ فيها كلامٌ يقالُ

وإن زيّنتْ جنَّةُ اللهِ يا صاحبي أولَّهْ!!
كُنْ خفيفاً على روحها إنْ مررتَ بها صدفةً
أو أقمْتَ،
وإن مُتَّ لا تكُنِ الزَّلْزَلَةْ!!

أولُ القلبِ نسمةُ حبٍّ وآخرهُ حشْرَجَاتُ الوَلَهْ!!

مسائل عالقة 2

حبُّكِ المطمئنُّ على عتبة البابِ مثل خطىً عائدةْ
حبُّكِ المطمئنُّ كنبتةِ زينةْ..
فوقَ طاولتي..
الناشفُ المتفسِّخُ والمتكرِّرُ مثل الأغاني اللعينةْ
لم يكن أيَّ شيءْ
ليس فيه الحقولُ التي أشتهي
ليس فيه الرياحُ ولا فيه حتى ضجيج مدينةْ
قابعٌ مثلَ كلبٍ كسولٍ أُعلِّمُهُ الصيدَ من دون جدوى
ينامُ ويصحو ولا أعرفُ الآنَ إن كان يحلمُ
حين يُكشِّرُ عن نابهِ ويعضُّ الهواءْ!
.. أم كانَ يغرقُ في قطرةٍ من بقايا الحِسَاء!
حبكِ الباردُ القانعُ المتمددُ فوق الأريكةِ كالغرباءْ!!
.....
كنت أحسَبُ أن البنفسجَ في مدخلِ البيتِ سوفَ
يموتُ إذا لم تَعوْدي
وأن الحمَامَ الذي صرتُ أدعوهُ من زمنٍ رئةَ النافذةْ
لن يغادرَ حافَّتَها للسّماءْ
وأن القصيدةَ، تلك التي قلتُ أكثر من مرَّةٍ إنها وردةٌ بين أحلى القصائد كي تقرأيها
سينكرها الشِّعرُ الشّعراءْ
قلتِ لي دائما: لا عليكَ
البخارُ الذي يتصاعدُ من صدرِ ذاك الحصانِ مجرَّد ماءْ!!
والقصيدةُ، هلْ في القصيدة شيءٌ
سوى طُرُقٍ من رياحٍ وأشرعةٍ في الهباءْ؟!
.....
يخدعُ القلبُ أسماءَه حين يخلطُ

بين السَّراب وبين النِّساءْ!!

مسائل عالقة 3

رائعٌ أَن يكونَ لديكِ رجلْ
لايحبُّ الكلامَ
ولا يتذكَّرُ عيدَ الزواجِ
ولا الفرقَ بين الفضاءِ الفسيح وبين السِّياجِ
وحين يُناديكِ يحتاجُ عشرَ ثوانٍ لكي يتذكَّرَ اسمَكِ
أو ساعتين لكي يتذكَّر عينيكِ، لونَهما، لونَ عشبكِ في الفجرِ، طعمَ نداكِ
وأما إذا ما رآكِ مُصادفةً في الطريقِ
سيصرخُ وقتَ الغداءِ: إلهيَ!! لم أكُ أعرفُ، من قَبلُ، كم تشبهيَن سواكِ!!
ويصمتُ في الصمتِ أكثرَ من حَجَرٍ
وينامُ سعيداً هنا في سريركِ مثل الملاكِ
وسيَّانَ إن أزهرتْ في حديقةِ قلبكِ نافذةٌ
أو أقامَ على كتفيكِ غرابْ
وسيَّان إن كنتِ في حضنهِ عسلًا أو ترابْ
وسيّانَ إن هبطَ الوحْيُ فوق بياضِكِ، هذا إذا كنتِ شاعرةً، أو إذا هجركْ
رائعٌ أن يكون لديكِ رجلْ
ليسَ فيهِ من النَّايِ شيءٌ
ولا من حنين المراكبِ شيءٌ
وإن غبتِ، لا يسألُ النَّجمَ عنكِ، ولا يقتفي أثرَكْ
ولا يعتني بزهوركِ
لا يشتهي مطرَكْ
لا يحبُّ أغاني الغرامِ
ولا البحرَ، إن كان قربكِ بحرٌ،
ولا فيلمَ (زوربا)
ولا صوتَ (فيروزَ) في آخرِ الليلِ
أو شِعرَ (لوركا) عن الغجرِ الرائعيَن

ولا فنَّ (دالي)
ولا غابةً ولِدَتْ من سؤالِ
ولا كلَّ مُنخفِض في السّهول ولا كلَّ عالِ
رائعُ أن يكون لديكِ رجلْ
ليسَ فيه ارتعاشُ لقاءٍ ولا أرقُ في فراق
ولا غبطةٌ في الحريرِ ولا شهوةٌ في العِناق
ولا يستسيغُ الجِناسَ
ولا يستسيغُ الطِّباقْ!!

رائعُ أن يكونَ لديكِ...
لكي تحتفي بعدَه يا امرأةْ
كلَّ يومين عاماً بذِكرى الطَّلاق!!

مسائل عالقة 4

رائعٌ أن تكونَ لديكَ امرأة
لا تحبُّ الكلامَ
ولا تتذكّرُ....
أما إذا ما رأتكَ.....
...
....
.....
....
... إلخّ.. إلخّ !!!!

المتعدِّد

أنتَ في عين أمكَ، بالطَّبعِ، شيءٌ
وفي عين جَدَّكِ شيءٌ
وفي عين أختكَ شيءٌ
وفي أعين الأخوة الأربعةْ...
أنت في عين جاركَ شيءٌ
وفي عين زوجتكَ، الابنة، الابن، والعمة التاسعةْ...
أنت في عين صاحب هذي البناية شيءٌ
وفي عين صاحبِ بقّالةِ الحيِّ، إن ظلَّ في الحيِّ بقّالةٌ!!
أنتَ شيءٌ
وفي عين تلك الزَّميلة شيءٌ
وفي عين ذاك الزَّميلِ، المديرِ، وحارسِ بابِ الكراجِ،
وبوَّابِ هذي العمارة شيءٌ
وفي عين طيرٍ على حافَّة السّور شيءٌ
وفي عين كلبِ الصغير المدلّلِ فوق الرصيف المشجَّرِ شيءٌ
وفي عين تلك الدجاجةِ في قفص الذَّبح شيءٌ
وفي عين سكينةٍ لامعة...
أنت في عين شُرْطِي المرورِ، وفي عين ذاك المحقِّقِ، في عين مسؤولِ حزبكَ، في عين مندوب ربِّكَ: راعي الكنيسة، أو شيخِكَ المتوعدِ، شيءٌ
وفي عين جابي الضرائبِ شيءٌ
وفي عين سادةِ هذي البلادِ المريضةِ شيءٌ
وفي عين تلك الفتاةِ التي تتهادى أمامكَ شيءٌ
وفي عين تلكَ التي تتثاءبُ خلفكَ شيءٌ
وفي عين تلك التي وقعتْ في غرامكَ قبل ثلاثيَن عاماً، وتلك التي صافحتْكَ، ولم تنْسها أبد يومَ عرسِكَ، شيءٌ!
وفي عين ذاك الذي يدَّعيكَ صديقاً، وذاك الصديقِ، وذاكَ الذي لا يحبُّ مرورَ اسمِكَ الصَّ

في أيِّ لحظةِ صَفْوٍ، وذاكَ الذي لا يُردِّدُ غيرَ حكاياتِهِ مَعْكَ شيءٌ
وفي عين ذاكَ الذي سيبيعُكَ، ذاك الذي يشتريكَ، وأنتَ هنا غافلٌ، والذي لا ينامُ إذا جعتَ شيءٌ
وفي عين ذاكَ الذي لا يراكَ سوى جثةٍ تتحركُ تسرقُ حصتَه من هواءِ بلادكَ شيء!!
وفي عين مرآتكَ المطمئنةِ في جوفِ تلك الخزانةِ أو قربَ باب الخروج الرَّماديِّ شيءٌ
وفي عين نفسِكَ شيءٌ

فمَنْ أيها المتعدِّدُ أنتَ
وهلْ هُمْ مرايا
أَم اَنكَ أنتَ المرايا وأنتْ؟!!!

العصفور

بعكّازهِ جاءَ من ذلكَ السَّهلِ
والظلُّ، أعْني هنا ظلَّه،
كالنهار يحدِّق فينا ويسبقنا بين حينٍ وحين
بما فيه من فضةٍ تتدلّى
بما فيه من قَدَمٍ واحِدةْ!!
تَقدَّمَ، دارَ،
وفي أُفق لا نراهُ تناثرَ، ثم تجمَّعَ مُرتبكاً كرهَانْ
وحدَّقَ فيما نراه وما لا نراهُ
وأصْغى لما فيهِ، ما ليسَ نسمعُهُ: الهيجانْ!!
فمنذُ هبوبِ الرصاصةِ في الفجر
ما عاد يفتِنُهُ أيُّ شيءٍ سوى الطّيرانْ:
حمامٌ يطيرُ وعصفورُ دوْريْ على طرفِ السِّور
رفٌّ سنونو يُحلِّق في الجوِّ كالهذيانْ
- على مهْلِها في الفَلاة تسيرُ الدّجاجاتُ أما البيوتُ فلا تتحرَّكُ، قالَ، أطالَ الطريق؟! أم أ
الشوارعَ واقفةٌ في الظهيرةِ؟! أم عَلِقَتْ بسياجِ المكانِ ثيابُ الزَّمانْ؟!

عندَ ذاك الغروبِ تناولَ عكّازه ضربَ الأرضَ
ظِلَّ الدّجاجاتِ، ظلَّ الجناحِ المقيَّدِ بالوحلِ
ظِلَّ المسافةِ ما بين نورٍ وبينَ دخانْ
كان لا بدَّ من أن يقولَ كلاماً فقالَ
احملوني إلى طرفِ السّورِ،
قلنا الصباحُ رَبَاحُ
فقال احملوني
حملناهُ
للسَّطحِ قالَ،
حملناهُ

- لم أَكُ أعرفُ من قبلُ أن البسيطةَ شاسعةٌ هكذا
والجناحَ مطارْ!!
سأرجِعُ قبل هبوطِ الظَّلامِ على الظلِّ
قبل نزولِ الحَمامِ على عتباتِ الأَذانِ
.. وطارْ

موت

صباحاً قربَ بابِ الدارِ
تحتَ سمائيَ الزرقاءِ
تسقطُ وردةٌ حمراءُ في صمتٍ على الأعشابْ
تتبعها طيورٌ من حكاياتٍ ومن شجنِ
تحيطُ بها إلى أن تفتَحَ الأمواجُ بابَ الظُّهْرِ
في رملٍ وفي بدَنِ
تُغرِّدُ بعدَها وتدورُ حولَ ظلالها الحمراءِ
حتى العَصْرِ
تنفضُ حزنَها وتنامُ في الوَهَنِ
مساءً، تحتَ ريشِ الموتِ
تنهضُ نصفَ نائمةٍ
تطيرُ كطعنةٍ سَكْرى
وتبكي ساعةً أُخرى
على حدِّ الهوا الخشنِ

قليلًا.. يسقطُ القتْلى
بلا عددٍ
قليلًا.. يرحلُ الموتى على السُّفنِ
قليلا تُمسِكُ الأرواحُ بالأعتابْ
أمامَ الرِّيحِ والقمرِ الرَّماديِّ الذي يتفقَّدُ الأعشابْ
ولا يبقى سوى الزَّمنِ
.. هنا وطني!!!!

هو

ولداً، ربَّما، كانَ
أو ربّما طائراً من ورَقْ
ظلَّ يركضُ للشَّمسِ، يركضُ، يركضُ
حتى احترقْ!

بين حينٍ وحينٍ أصادفهُ
قطرةً من مطرْ
وغناءً أليفاً
على صدرِ أمنيةٍ من حجرْ!

لم يقُلْ لي هنا أحدٌ اسمَهُ
أبداً لم يقُلْ
كانَ أكثرَ من أيِّ شيءٍ
وكالنّورِ كانَ أقلْ!

كتَبْنا معاً نصفَ بيتٍ من الشِّعرِ
ذاتَ جنونْ
قالَ لي: قد كتَبْنا القصيدةَ
لكنْ، لتكتملَ الآن ينقصُها أن نكونْ!

أنتَ تعرفُني قلتُ
قالَ: أنا؟!! هل قُتِلْنا معاً؟!
قلتُ عشنا كثيراً
فقالَ بلا خجل ساخراً:
أنتَ، أنتَ إذن!!

لم يكن حُلُماً
لم يكن ولداً، نَمِراً، أو حَجَرْ

كانَ بَرْقاً على شرفةٍ من سرابٍ
خفيفاً..
ومرَّ مرورَ البشرْ!

حيرة

.. وليتكِ في الضوءِ
ليتكِ في العَتْمِ
ليتكِ في الصمتِ
في الكلماتِ
وليتكِ في الريحِ
ليتكِ في الجمر
ليتكِ في الماءِ
ليتكِ في العطشِ المتشقِّقِ
ليتكِ في الرّوحِ
ليتكِ في الموتِ
ليتكِ في البرقِ
ليتكِ في الرعدِ
ليتكِ في الصَّحوِ
ليتكِ في الحُلْمِ
ليتك في الغيمِ
ليتكِ جئتِ..
وليتكِ لَمْ !!

لا تشبهُ الحُلْمَ في أيِّ شيءٍ
وأنكَ عكسُكَ
والشَّاعر المتخصصُ في سمكِ السَّلَمُوْنِ ورتْقِ حنينكَ
أما الأخير فليسَ سوى ظلِّ موتِكَ

ها أنت كلّكَ في حَضْرَةِ الصُّحْبَةِ الجائِعْة!!

قد يكونُ الذي كانَ، أسوأَ مما توقَّعتَ
أجملَ، لا فرقَ،
كانتْ هناك الخديعةُ والصِّدقُ
والحلوُ والمرُّ
والنَّمِرُ، الهرُّ أيضاً!
ومَن أنت مَنْ؟!
صفةٌ سابعَةْ؟!!
قربَ بيتكَ عشتَ بعيداً
ووسْطَ الزّحام وحيداً
وفي الأغنياتِ شريداً
وفي الصفقات وريداً
وفي وقْعِ اسمِكَ ظلّاً
وفي كلِّ حُرٍّ حدوداً
وفي كلِّ مرمىً لهذا الجَمال - المدى صومَعَةْ!

كان لا بدَّ من قمةٍ للبدايةِ
لا بدَّ من قمةٍ للنهايةِ
حتى تموتَ جميلًا على صدرِ موتِكَ
في القوقَعَةْ!!

العابر

لشَعْركَ ينظرُ الحلّاقُ حين تمرُّ مُنشغِلًا أمامَ البابْ
لنوْعِ قميصكَ الخياطْ
لطولكَ صاحبُ الحانوتْ
لشكْلكَ سائقُ التاكسي
لجيبكَ ينظرُ النشّالْ
لعنقكِ ينظرُ السَّيّافْ
لأنفكَ عالِمُ التجْميلْ
لسِحركَ تنظرُ المرأةْ
لضَوئكَ تنظرُ المرآةْ
طبيبُ العين للعينين
والشُّرَطيُّ للرُّسغين!
والعدَّاءُ للسَّاقين
والسَّبّاحُ للكتفين
والرُّقباءُ للشّفتين
لا يبقى للآسكافيِّ إلا جزمةٌ وحذاءْ!

لخطوك ينظرُ البصَّاصْ
لرأسك يُطلِقُ القنَّاصْ

أمومة

قالَ لي البيتُ:
سُوريَ عالٍ وكلُّ جدارٍ هنا قلْعَةُ
والنوافذُ تحرسُ سرَّ المكانِ
وتحرسُ ضوءَ الهلالِ الطريِّ على زهرةِ الفُلِّ فوقَ السِّتارةِ
في الحَوْشِ أشجارُ سرْوٍ
وخلفيَ، تعرفُ، غابةُ لوْزٍ وتمتدُّ حتى رؤوسِ الجبالِ
فنمْ جيداً
ثَمَّ بحرٌ أنيسٌ يُعلِّمُ أطفالَنا العَوْمَ في ساعةِ الظُّهر
يحْمي النّوارسَ من كلِّ شرٍّ
ويعرفُنا في الليالي الطّوالِ
ويفهمُنا كالنّدى والظِّلالِ
على كَتِفِ التلِّ زيتونةٌ ولِدَتْ قَبْلَنا
علَّمتْنا كلامَ القناديلِ في الشَّرقِ
والريحَ في طرُقاتِ الشَّمالِ
فنمْ جيداً
خلْفَ بيّارةِ الموزِ نهرٌ صغيرٌ
يُغنّي لطفلٍ على خشبِ الصَّلْبِ
يغسِلُ أرجلَهُ بالبنفسجِ
.. جبْهتَه ببياضِ القُرنفل والياسمينِ
ويهمسُ: كنْ قمراً للجَمالِ
يمرُّ الظَّلامُ هنا واثقاً كالجنودِ
فنمْ، تحتَ رأسِكَ هذا الترابُ
وظلُّ الجنود كظلِّ الرّياح: بقايا الرِّمالِ
فنم جيداً
قالَ لي البيتُ

لا ترتعِدْ إن رأيتَ سماءً مُعلَّقةً من ضفائرها
تتدلّى من السَّقفِ
أو إن رأيتَ ذراعَ فتى - ليُعيدَ السماءَ إلى نفسها- يتسلَّقُ في الليلِ جذْعَ النّخيلْ
أو رأيتَ غزالًا يُطلُّ من النَّعْشِ
أو نجمةً تتعثَّرُ كالطّفلِ خلْفَ دليلْ
قال لي البيتُ لا ترتعدْ
بعدَ يومين تنهضُ حيّاً
وإن نِمْتَ كالآخرينَ قَتيلْ!

أمم

وصايا كثيرة!!
وصايا أبٍ، جَدَّةٍ عمّةٍ، خالةٍ
ووصايا جنودٍ على حافةِ السُّور أو قربَ أبوابِ قلعتِنا
ووصايا الجميلةِ عِشْتارَ جارتِنا
ووصايا الشيوخِ، وحكمتهم، يا إلهيَ كنا سننسى وصايا المعلِّمِ والوالِدَةْ!!
وصايا على حَجرٍ ووصايا على الطين
بعضُ الوصايا كما النّاس تُنسى وبعضُ الوصايا على حائطِ المعْبَد المطمئنِّ لهذا الإلهِ وط
هـهنا خالدة!!
وصايا الأساطيرِ
ليلِ الحكاياتِ، أشعارِ (سافو)
وصايا الملاحمِ، أنصافِ موتىً وآلهةٍ
ووصايا لكي نتناسى الحروبَ
وأخرى على بُعْد موتينِ منها
وصايا لذبْحِ العَدوِّ هناكَ وأخرى لندعوه للمائدةْ!
وصايا على هيئةِ اللحم في النار، أخرى على هيئةٍ باردةْ
وصايا على خَشَباتِ المسارحِ، في الاحتفالاتِ، في
الدّعواتِ وفي الصلواتِ
وفي ما نرى من دَمٍ فوقَ أعتابِنا
ووصايا على الرَّملِ تمضي مع الريح مُبتَعِدَةْ
وصايا!!
وصايا الإلهِ وصايا النبيِّين والشُّهداءِ
وصايا السماءِ
وصايا الكتابِ يزاحمُ في القلبِ ما في الكتابِ
وصايا العُبورِ وصايا الأبدْ
هنا ظلّلتْ كلَّ روح هنا

وهنا نُحِتَتْ فوق كلِّ جسدْ
وصايا تُحلِّقُ مثل الحَمَامِ هنالكَ
فوق السُّطوحِ وفي المكتباتِ الكنائسِ والكُنُسِ النَّسماتِ
وصايا المساجدِ، خمسُ على كلِّ قلْب سَجَدْ
وصايا لغاندي وأخرى للينين، غوته وجبران، أُخرى لموزارتَ، أُخرى لزوربا
وها نحن بعد ثلاثيَن قرناً كما نحنُ
لم يتعلَّمْ أحدْ!!

كذب أبيض

لم أقلْ كلَّ شيءٍ
قليلًا همستُ!
قليلا كتبتُ!
قليلًا تدافعتُ ما بين قلبي وبيَن يديّ!
قليلًا غفوتُ!
قليلًا صحوتُ!
قليلًا صعدتُ لشمسِ الكلامِ
صمتٌّ، اختصرتُ، أطلتُ عليّ!
قليلًا بكيتُ!
قليلًا صهلتُ!
قليلًا خرجتُ إلى شبهِ نفسي
وخيَّمتُ في ظلِّ فهدٍ أليفٍ
وأطعمتُه حُلُمي دونَ خوفْ!
قليلًا بلغتُ رياحَ شتائي!
قليلًا وصلتُ لعَتْبةِ صيفْ!

خريفي هنا كلُّهُ يتكلَّمُ
والروحُ حرفْ!!

هنا

هنا في هدوءِ الرَّصيفِ قتيلُ
هنا في انطِفاءِ الزّهورِ قتيلُ
هنا تحتَ زيتونةٍ تشتَهي أن تعيشَ طويلًا كأغنيةٍ
وهنا في ظلالِ الكَمانِ على كتفٍ ناعمٍ كالهواءِ قتيلُ
هنا في امتداداتِ شَجْرَةِ سَرْوٍ
تُناغي السّماءَ لتضحكَ لو مرَّةً للصغارِ قتيلُ
هنا فوق عَتْبَةِ بيتٍ يُهدْهِدُ ساكِنَهُ كي ينامَ قتيلُ
هنا في استراحةِ سيِّدةٍ بَعدَ نشْرَةِ أخبارِ هذا المساءِ
وما سيَليها قتيلُ
هنا في اتِّزانِ المذيعِ أمامَ الشَّريطِ المُصَوَّرِ للغارةِ الألفِ يَصحو قتيلُ ويَغفو قتيلُ
هنا في خُطى القُبَّراتِ على خيْطِ نُورٍ،
هنا في حقيبةِ تلميذةٍ،
فوقَ مَقْعَدِ درْسٍ،
على صمتِ شُبّاكِ صفٍّ تَعلَّمَ اسمَ الصباحِ
فصادقَ شمساً وعشرينَ طائرَ دُوريْ قتيلُ
هنا في الأغاني، القصائدِ، في لوحةٍ حَلَّقَتْ حينما التهموا البيتَ قَبلَ الغروبِ قتيلُ
هنا في لقاءِ سنونو بظلِّ الفراشةِ فوقَ المياهِ قتيلُ
هنا في ابتساماتِ عاشقةٍ تتساقطُ مثلَ الخريفِ قتيلُ
هنا في جَنِيْنٍ -على حاجزٍ- يتفلَّتُ كي
يُمْسِكَ اسمَ أبيهِ لينجو قتيلُ
هنا فوقَ هذا السَّريرِ قتيلُ
هنا تحتَ هذا السَّريرِ قتيلُ
(وما كانَ خلفكَ، ما زالَ خلفكَ: رُومٌ سوى الرُّومِ
قل لي إذنْ
فعلى أيِّ جنْبَيْكَ سوفَ تميلُ؟!!)[2]

أيامنا السبعة

ذاتَ يوم صَرخْتَ:
وجوهُ وأيدٍ وضوءُ كثيرُ
أبُ ثم أمٌّ وعرسٌ صغيرٌ
ولكن نسيتَ
إذن فتذكّرْ
هنالكَ مَن ماتَ في الرَّحْم قبلَ دقائقَ من موعدٍ للحياةِ
ولم يعرف الفرْقَ ما بين مِلْح وجرح وسُكَّرْ
.....
ذاتَ يوم مشيتَ، لعبتَ،
لهوتَ وغنَّيتَ،
حلَّقْتَ مثل الطيورِ
ولكن نسيتَ
إذن فتذكّرْ
هنالكَ من لم يُقِمْ في الغِناءِ
ومَن لم يَسِرْ في الطريقِ
ولم يكُ يملكُ رجْلَين، حتى، لكيْ يتعثَّرْ
.....
ذات يوم عَشِقْتَ سَهِرْتَ لياليكَ
مُتَّ هياماً
بُعثْتَ بلمسةِ حبٍّ
ولكن نسيتَ
إذن فتذكَّرْ
هنالكَ من لم يعشْ كي يرى امرأةً فيه تصهلُ
أو شفةً في عناقٍ طويل تذوبُ على شفتيه كشَهْدِ الجبالِ وتُعْصَرْ
.....

ذات يوم ذهبتَ إلى الحربِ شبهَ فتىً ورجعتَ
بجرح وذاكرةٍ من شظايا
ولكنْ نسيتَ
إذن فتذكَّرْ
هنالكَ من لم يعُدْ
فينوحُ أمامَ أسرَّةِ أطفالهِ شبحاً
ويعانقُ زوجتَهُ، كلَّما سقطَ الليلُ في بئره، شبحاً
ويعضُّ على وجعٍ نازفٍ وجراحٍ تئنُّ:
اليدان تطيرانِ صوْبَ السّماءِ
ودربُ الرُّجوع إلى البيتِ أحمرْ
.....
ذات يوم رأيتَ بحاراً جبالًا
جداولَ تجري
وعشرةَ أَنهُرْ
بلاداً تنامُ بباب الظهيرةِ
أخرى تسيرُ إلى النوم كالطّفلِ بعد الغروبِ
وأخرى كعاشقةٍ لا تنامُ
إلى أبدِ الصَّحْو في العِشقِ تَسْهرْ
ولكن نسيتَ
إذن فتذكَّرْ
هنالكَ من لم يصلْ أيَّ شيء وماتَ وفي يده الخارطةْ
وعلى وجههِ جِهةٌ كلّما اتَّضَحتْ تتبعثَرْ
.....
ذات يوم هتفتَ لحريةٍ وصلتْ من بعيدٍ
رقصتَ وخاصَرْتَها في الطّريقِ
وعانقتَها في الميادينِ، طفلةَ شمسِكَ،
قلتَ لها: سأحبُّكِ أكثرَ من أيِّ أكثرَ

لكن نسيتَ
إذن فتذكَّرْ
هنالكَ من عاش عَتمْاً وماتَ
وشبّاكه شُرْطةٌ وحديدٌ وأعتابُهُ عسكَرٌ فوق عَسْكَرْ
.....
ذاتَ يوم وصلتَ لآخرِ عُمْركَ
لم تَحْنِ رأسَكَ يوماً وتُكْسَرْ
وكنتَ ترى كيفَ تكبو الخيولُ على طولِ دربكَ
أو تتقهقرْ
ولكن نسيتَ
إذن فتذكَّرْ
ليسَ ثمةَ أجملُ من كلِّ هذا
وليسَ هنالكَ ما هو أكْبَرْ

الجَمَال الأمريكي*!!

(صورة أخرى للمجنَّدة الأمريكيّة سابرينا هارمان خارج سجن أبو غريب!!)

كان يمكنُ أن يُصادفَها شاعرٌ في حديقة
فيكتبُ لها ناسياً الزهورَ المتطلّعةَ للشّمس
وكركرةَ الأطفال المتصاعدةَ نافورةً من عسل
والطيورَ المحلّقةَ دون جدوى
مُحاوِلةً تقليدَ ظلالها في الماء

كان يمكن أن يصادفها رسّامٌ
فيرسمها ناسياً جنونَ الألوان فوقَ الأغصان
وخيوطَ النّور الباحثة عن مكان لها في المرآت
والمقعدَ الخشبيَّ العتيقَ الذي احتضنها فبدا أكثر زهواً من ربيع

كان يمكن أن يصادفها عازفُ كَمان
فيكتب، يائساً، مرثيةَ أصابعه اليتيمة
تلك التي تجولَّتْ في سهولِ بتهوفن
وصعدت الذُّرى خفيفةً كأنفاس موزارت
وهبطت الفضاء ملائكةً من أصابع رفائيل
وعادتْ لصقيع وحدتِها في آخر الليل

كان يمكن أن يصادفها الرَّحالةُ فيُقيم
الغريبُ فيعثر على النافذةِ الرّاكضةِ التي خلَّفَها وراءه
الغجريُّ فيبكي حصانَه الذي غاب
قبل أن يرى كيف تكونُ الأفراس!

كان يمكن أن يراها الكهلُ فيفتقدُ بغتةً ابنتَهُ في البلاد البعيدة
ويخترعُ أكثر من وسيلةٍ كي يظفر بحديث سريع
أو تراها أمٌّ فتلعنُ رعونة ابنائها العُمي

الذين لم يروا بعدُ مثلَ هذا الجَمَال!!!!

كان يمكن أن يراها المتسوِّلُ قادِمةً من بعيد
فيصرخُ كما لو أنّه عثرَ على بوابةِ الكنز
أو يراها الثريُّ فيكتشفُ عُريَ روحه
في امتدادات (وول ستريت)
أو العاشق المهجور الذّاهب لانتحاره فيهمس:
الله، ما أجملَ الغَد!!

كان يمكن أن يراها الطفلُ الضائعُ
فيركض لحضنها دون وجَل
وأن يتوقَّف العصفورُ متجمِّداً في السَّماء عشرَ دقائق على الأقل
مُنشداً أغنيةً لم يسمع مثلها أحد
وأن يرتدَّ النهرُ عائداً نحوها ثلاثين مرةً
كالصِّبْيَة العاشقين فوق درّاجاتهم في فيلم (مالينا)

كان يمكن أن نقع في حبها أنتَ وأنا فنتشاجر
لأن أحدنا سيخسرُ العالم إنْ لم تكن معه

كان يمكن أن ترى كلَّ هؤلاء

لكنها لم تكن تُفكِّر في شيء
غير ذلك الجنديِّ المتلهِّفِ لبدء الحرب
والقاتلِ الذي يحثُّ الخُطى نحو الضحايا حالماً بغنيمةٍ تليقُ بماضيه
والجنرالِ الذي يُفكِّرُ بافتتاح الهجوم بمجزرةٍ واحدةٍ على الأقل!
وابتسامتِها الواسعةِ في قلبِ مشهدِ الرُّعبِ
وهي تتطلَّع لآلاتِ التَّصوير
فخورةً بمعجزتها التي تحققتْ
وقد استطاعتْ تحويلَ العالمِ كلِّه إلى جحيم

إلى رفائيلّه تشيرييلّو

(صحفي الإيطالي قتلته القوات الإسرائيلية وهو يبحث عن الحقيقة في شوارع فلسطين)

في الرَّبيعِ القادم
حيَن تتفتَّحُ الأزهار
ويصعدُ العشبُ ببراءته الخضراءِ عتباتِ البيوتْ
كما لو لم يكن، في أيِّ يوم هنا، جنودٌ في الشوارعِ أو فوق التِّلالْ
حين تنشرُ أشجارُ اللوزِ نوّارَها غيرَ عابئةٍ بشيء
ويتلمَّسُ الأزرقُ السماويُّ فوقَ سطوحنا روحَ البحر
حين يعودُ الحسُّونُ إلى أغنيته
بكاملِ أجنحتِهِ
ويعودُ القرنفلُ مزهوَّاً لقلبِ العاشقات
حين تُطلُّ تلميذاتُ المدارسِ على شمس الضُّحى
من نوافذِ الصفوف وكلماتِ أغاني الحب
سيخرجُ أطفالنا نحوَ السّهول
يتفقَّدونَ طيورَهم الصغيرةَ فوق أغصانِ الزيتون
وأزهارَ الربيعِ في كرومِ العنب، زهرةً.. زهرة
وفي لحظةٍ سيتوقَّفونَ دَهِشين أمامَ وردةٍ لم يروْها من قَبل
وسيسألونَ ما اسمُها
ويختلفون
ويسألونَ ما اسمُها ثانيةً
ويختلفون
قبل أن يتقدَّمَ من بعيد
طيفُ ابنةِ جيرانِهم الصغيرةِ التي اختطفتْها رصاصةٌ قبلَ عام
هامساً..
ألا تعرفون؟!!
حين يأتي الرَّبيع القادم

سيكون اسمُك: رفائيلِّه
اسماً لوردةٍ جديدةٍ في بلادي

ألفريدو

إلى Alfredo Tradardi

دمعته أقربُ من ابتسامته
منذ أن رأى ما رآه:

كانت الحواجزُ تتطايرُ حوله كالذباب
والبنادقُ تتطلَّعُ بأعينها الشَّرهة
باحثةً عن ممراتٍ في جسده
ليرى القتلةُ الشَّمسَ عبر ثقوبِ الرَّصاص!

دمعته أقربُ من ابتسامته
مذ رأى الألعابَ تُذبَح
وعيون الصِّغارِ تُجففُ احتمالاتِ الدّمع بالغضبِ والريحْ
مذ رأى النساءَ على الحواجزِ يمسحنَ دماءهنَّ بأكمام القمصانْ
ويحمِلْنَ مواليدهنَّ بأهدابٍ مبتلةٍ برائحةِ الموت

دمعته أقربُ من ابتسامته
مذ وقفَ في القاعة ليقرأ قصيدتي التي كتبتُها
عن رجلٍ كانت ابتسامتُهُ أقربَ من دمعته
لكنهم قتلوه هنالك في شوارع (رام الله)

أيُّ جحيم ذاكَ الذي يجعل المسافةَ شاسعةً هكذا
بين الابتسامة والشّفتين؟!

لكنّه في آخر السَّهرةْ
قبل الودا عِ بخمسِ ساعاتٍ!!
ضَحِكَ رغم ذلك وهو يقول لي:
سأواصل السَّهر معك أيها الشّاعر

حتى تعودَ في المرَّة المُقبِلة!

صبي 1

لا طائرَ على السِّلك
لاهاتفَ يُوصلُ الدَّمعة
لا وردَ في الحديقة
لا حديقةَ تسترُ عاشِقَين
لا ياسمينةَ تتسلقُ الجدار
لا جدارَ يسندُ ظهرَ القتيل
لا غيمةَ تأخذ بيد السَّروة
لا سروةَ في يدِ الفضاء
.....
حجرُ يقذفُ به الصَّغير
يمنعُ السماءَ من السُّقوط

صبي 2

في ذلكَ الصَّيف
في تلكَ الظهيرة
حيثُ لا ظلَّ يغدو للشّجرة
ولا سقفَ يغدو للبيت
ولا خُضرةَ لجبين الأُم
كانت العتباتُ تحاولُ الدُّخول
والشوارعُ تجري ملتصقةً بالجدران
عشرُ بنادقَ سوداء
أطلَّتْ من هناك
ولم يكن الصبيٌّ يُدركُ ما يدور
...
في تلكَ الظهيرة..
خرجت الشمسُ.. ولم تَعُدْ بَعْد

صبي 3

اسمهُ في الظلّ
ودمُه في النّور
..
الشجرةُ تعرفه
على كتفيه ربتتْ
وبأغصانها الخضراءِ طلبتْ منه أن يصعد
..
العصفورُ يعرفه
فوق كتفيه غنَّى
وبجناحيه الصغيرين
طلبَ منه أن يطير
..
السماء تعرفه
ظلّلته بالأزرق
وبشمسها أمِّ الضوء
أشارتْ له أن يُسرِع
..
الأرضُ رأتْه هناك
بكتْ كالعشب
ورَجَتْهُ أن يعود
..
يا لِحَيرة الصّغير
الذي لم يتعرَّف
على كلِّ ذلك الحبِّ
الذي كانَ ينتظره في قلْب أُمّه

صبي 4

لا تبتعدي أيتها السّماء
لقد وصلتُ الآنْ
مُضيئاً مغسولا بدم طفل
وحقولِ شقائق النُّعمان التي تتنفَّسُ بصعوبةٍ
تحتَ جنازير الدّبابات

لا تبتعدي أيتها السّماء
نظيفاً جئتُ
وغير مُغْبرٍّ كعادتي
فالانفجارُ الذي طوَّح بي
لم يسرقِ الطريقَ من قدميّ
بل الغبارَ عن جسدي أيضاً

لا تبتعدي أيتها السّماء
منذ أيام أصعدُ
الطّائرات تُحوِّم
ناثرةً الحواجزَ بين الغيوم
والملاكُ الذي جاءني كانَ بجناحٍ وحيد!!

لا تبتعدي أيتها السماء
ها قد وصلتُ أخيراً
ها قد وصلتُ
لأهمسَ لكِ بحنجرتي المفتوحة
كلاماً قد تسمعينه هنا بوضوح
بعيداً عن أزيز الرّصاص
ومرورِ الشّظايا في الجرح الواحدِ عشراتِ المرَّات
: أيتها السماءُ التي أحببناها ليتكِ كنتِ معنا!!

صبي 5

ليس يعرفُ الصَّبيّ
كيف عبرتْ فجأةً تلكَ النَّسمةُ
فحرَّكتِ السَّتائرَ
فارتجف قلبَهُ أمام لحظة الرُّعب تلك!!
..
منذ أيام تُمطِر
منذ أيام لم يرَ الشَّمس
إنه متأكِّد من أنها هناكَ في الخارج
خلفَ الغيوم
أو خلفَ ظَهْر ذلكَ القنّاص
الذي يتربَّص بنافذةِ الصّبي منذ أيام أيضاً

صبي 6

تُفتِّش الدبابةُ عن منفذ لتمرَّ منه
عَبْرَ جسدِ الصَّغير
وحين لا تجد
تسحقه أخيراً!

صبي7

كان يلزمُها الكثيرُ من الوقتِ لكي تعرفَهُ
ذلك الصّبي

ذات يوم وصلتْ لبيتها المجاور عروساً بثوبٍ أبيض
ذات يوم صعدتْ للسَّطح
ذات يوم نشرتْ الغسيل
ذات يومٍ هبَّ الهواء
ذات يوم رأتْ نظرة الصَّبي لعالم أحلامِهِ تحت الفستان
ذات يوم استردَّتْ فستانَها من الرِّيح
ذات يوم ألقتْ نظرةً على الصَّبي كما لو أنّها تؤنبه
فذابَ من فرطِ الخَجل
ذات يوم بكتْ العروسُ مرتين
وهي تتأمَّلُ مُلْصَقَه
- ما الذي كان سيحدثُ ذلك اليوم يا الله
لو أنّني تركتُ الريحَ تلعبُ بالفستانِ أكثر؟!!

صبي 8

هذه صورةُ أبي
هذه صورتي
: كم يشبهُكَ
أمي تقول لي
جدَّتي
وابنةُ جارنا التي لم ترَ أباها
أتأمَّلُ ملامحَهُ، عينيه.. جبينَهُ
ونصفَ ضحكتهِ
في الماضي كنتُ أفرح حين يقولون لي ذلك
أضحكُ كثيرا وأحاولُ أن أكون أطوَل
أما الآن فقد تغيَّر كلُّ شيء
أتفقَّدُ جسدي قبل النوم
أنظِّفه من رائحةِ البارود
وأغفو
في الصَّباح أمضي نحو الحاجز
وأقولُ: لعلَّهم يرونني
فيظنّونني أبي الذي قتلوهُ
ويهربون!
جدَّتي قالت لي اليوم:
كم كانَ جميلًا
ولكن الجنودَ لا يتأمَّلونَ وجوهنا قبل إطلاق النار!!

غياب

حين لم تجدِ المرأةُ بابَ بيتها
حين لم تجدِ النافذة
ولا السّطح
ولا حبلَ الغسيل
بيديها المجرَّحتين راحتْ تحفر المكانَ وهي تصيح:
العتبة يا إلهي
العتبة على الأقلْ
أجلسُ عليها وأحكي لهذا الليلِ
حكايةَ البيت الذي كان!

دمعة

العجوزُ الوحيدةُ
كانت تراقبهما من هناك
من شُبّاك بيتها الأخيرِ المُطلِّ على الشارع
ولدٌ وبنتٌ
يختلسانِ الياسمين من مساءات الموت
مُرتبكَين كما لو أنهما يخترعانِ الحُبّ

تتنهدُ العجوزُ خلف النافذة وتدمَعُ عيناها

ثلاثةُ أيام كاملة مرّتْ
ثلاثةُ أيام مثل عام في الجحيم
ثم تُطلُّ البنت
وحيدةً تجلسُ في موعدها الذي عبرتْهُ رصاصةٌ منذ ثلاثة أيام
لكنها لفرطِ ليلها الذي هبطَ فجأة
لن ترى دموع تلك العجوز
التي تنهمر بصمتٍ، هنالكَ أيضاً، خلْف الشّبّاك

ليل

الشجرةُ..
تلك الشجرةُ.. تلك
نعم
وهل ثمة شجرٌ غيرها
تلك الشجرةُ التي ركضتْ معنا
التي كشفتْ لنا أسرارَ الظِّلالِ
وغَضَّتْ أعيَن العصافير عنّا
وأشْرَعَتْ ألغازَ التراب تحت أقدامنا
تلك الشجرةُ التي صعدتْ إلى أعالي جباهِنا
وعلَّمتْنا الخروجَ على وصايا الأهل
...
ثمةَ رصاصُ كثيرٌ دوّى في العتْمة
ولم يُفتَحْ لها بابْ!!

هدف

في يدي نافذةٌ
وعلى كتفي حائطٌ قديم
بين الأصابع ثلاثةُ أَنهارٍ جفّتْ
لكن السَّمك لم يزلْ يحلمُ بالماء
على جبهتي سماءٌ وحيدةٌ
لا تصعدُ النجوم إليها
ولا الجبال
في الصدر حصانٌ يعدو
نحو هاويةٍ زرقاء
وفي القدمين هناك
نهايةُ الطّريق..
وعيُن بندقيةٍ لامعة وراء المنعطف
تُبشِّر بالدَّم

سؤال

القُبُلاتُ معلّقةٌ في الهواء
الهواء معلَّقٌ في النشيج
النشيج يتخبطُ قربَ نوافذ الشاحناتِ السوداء
الشاحناتُ معلَّقاتُ في البكاء
والرياحُ تهبُّ من أقاصي الشَّمال
مكسورةً بروائح البارود
...
ذات يوم سيسألُ الأطفال
ما الذي فَعَلَهُ الجنوب ؟!!!

صلوات

لكَ..
على ركبتيه يجثو الظلُّ
على قمّتِهِ الجبل
على صوتِهِ يجثو العصفور
على أريجها الوردة
على دمِهِ يجثو القتيل
على صهيلِهِ الحصان
على قلبها تجثو الأمّ
على ضوئها النافذة

كي لا تنحني لهم أيّها الشّاعر

شرفة مطفأة

لم أكن أعرفُ كم أن الله يحبُّني
إلى أن رأيتكِ
أيّ مفاجأة تلك التي أعدَّها لي في الغَيْب
وقال لي فجأة:
حتى أنتَ أيها الشاعر
يمكن أن أتذكَّرَك أيضاً!!

كنتُ قد أقفلْتُ البابَ
واثقاً من أن أحداً لن يطرُقَهُ
وأحْكَمتُ النافذةَ
واثقاً من أنّها لم تعد تُطلُّ على نهار
وأهملتُ تماماً حوضَ الزّهور في الشّرفةِ الضيِّقة

فجأة
وإذا بكِ أمامي
وأنا في ارتباكي
كالمجنونِ أحاولُ الوصولَ إلى المفتاح
أو خيطِ الضّوءِ الذي يُشير بوهَنٍ إلى النافذة
وأبحثُ في حوض الزهور - دون جدوى -
عن وردة أقدِّمُها إليكِ
الله!! كم تأخَّرتِ

دفتر كبير

كان وجهُكِ أقربَ ما يكون إلى
وجهِ طالبةٍ تأخَّرتْ عن حصَّةِ الأدب
يدُكِ تشدُّ على دفترِكِ الكبير
دفترِكِ الذي يحجبُ صدرَكِ
ونصفَ عنقكِ الدَّقيق كشبَّابَة!
كنتُ انتظرتُ وصولكَ من جهةٍ أخرى
جهةٍ لا تشبه الحلمَ
ولا تلكَ الخضرةَ التي تُضيء عينيكِ بخفَر
جهةٍ لا تعرف ما الذي يمكن أن يخسرَهُ العالم حين تهبُّ الريحُ
ويختفي وجهُكِ خلْفَ خصلاتِ شَعرك
جهةٍ رماديَّةٍ كهْلٍ مثل هذا الزّمان!
جهةٍ لم تعد تفكِّر بالسَّيرِ للوصولِ إلى أيِّ جهة!!
لكن أجملَ ما في الحياة
أنها تثبتُ لنا أننا دائما على خطأ!
لم تكوني بحاجةٍ للكثير
فقط:
أن تلتقطي أنفاسَكِ
وأن تُبدِّي ارتباكَ تأخُّركِ دقائقَ لا غير
وأن تُبعِدي بأصابعكِ الدَّقيقةِ خصلاتِ شَعركِ
وأنت تحشُرينها خلْفَ أُذنيكِ الصغيرتين وأنتِ تبتسمين
كان ذلك يكفي
لأن تكوني امرأة
وأن أبحثَ عن كتابٍ كبير، دون جدوى، أُخفي به ارتباكي
وأجنحةَ العاصفةِ الصغيرةِ التي لا بدَّ أنكِ انتبهتِ إليها
وقد بدأتْ تخفقُ في داخلي دونَ رحمة.

دهشة نيوتن

لم يكن ثمةَ الكثير الذي يمكنُ أن يُقال في وصْفِها
: عذْبةٌ إلى حدٍّ مُعَذِّب
ورقيقةٌ بحيث يمكنُ أن تضعَها بين يديكَ
وتركضُ حتى آخر العالم صائحاً دون تعب:
عسل!!
وأن تتقافَز، دون أن تُتَّهم بسرقة دهشةِ نيوتن:
لقد وجدتُّها

أشبه بنسمة مُقَشَّرةٍ
أو خيطِ ضوءٍ يتعلَّم المشيَ، قبل انتشار الناس، في الصباح المبكر
أغنيةٍ تتهجّى نفْسَها كي تنتبه فتاة عاشقةٌ فتغنِّيها
أو تذهب عميقاً في غناءِ نفسِها دون زهو

عذْبَةٌ
كورقةٍ خضراءَ تترنَّحُ في غابةٍ حالمةً أن تكون قصيدة حبّ
أو طائرٍ يتلمَّس الفضاءَ بزرقة ريشهِ
كي يُشير إليه طفلُ قائلا:
أنظروا لقد لوَّنَ السّماء بأكملها

عذْبَةٌ ومُعذِّبَة
مثل حنيني إليها الآن!!

الفتاة التي تزوجت الشتاء

تحتاجُ معجزةً على الأقل
كي تقولَ لها إنكَ لستَ أقلَّ من ذلك
تحتاج طفولةً وطيوراً
هجراتٍ كثيرةً
ونافذةً تتبَع الضّوءَ أكثر من عبادِ الشمس
تحتاج معجزةً على الأقلّ
ذكرياتٍ قادمةً من المستقبل
ويوماً يتطلّعُ لخطوات الحليب الصّافي
رغم وحْلِ ذلك الليل البعيد
حديقةً تنمو فيها القصائد جنباً إلى جنب مع الياسمين
وحزناً أكثرَ ثقةً من فرح مُباغت
تحتاج معجزةً على الأقلّ
خُضرةً للقامةِ
وقمراً للجبين
وكلماتٍ لم تقلْها لأيِّ امرأةٍ من قبل
تحتاج معجزةً على الأقل
كي تقطَعَ هذه المسافةَ الشّاسعةَ بين كرسيّين
تفصلهما طاولةٌ ضيِّقة
وهذه الزاويةَ المعتمةَ كاحتمالٍ صعب
تحتاج معجزةً على الأقلّ
كي تقولَ لها إنني أكثر
وإنني أرقُّ
من ذلك المطرِ الذي انهمرَ ذاتَ يومٍ على شَعرِكِ
كما لم ينْهمِر مطر
فابتعْتِ خاتماً صغيراً من بائع غجريٍّ

ورحتِ تركضيَن نحو الهاتفِ وأنتِ تصرخين بفرح
: أمي لقد تَزوَّجتُ!!!
: مَن؟!!
: الشتاء! الشتاء يا أمي!!

ألم أقُلْ لكَ
كنتَ تحتاجُ معجزةً على الأقلّ
المعجزةَ التي فيكَ
كي تسمعَها تقولها بصوتٍ عالٍ:
أحبُّكَ
غير عابئةٍ بتلك الغيوم التي راحت تتجمَّعُ منذرةً بالطّوفان!!

حكاية البنت السّمراء

ثلاثونَ عاماً بحثتْ عنه
إلى أن وجدتْهُ
ثلاثون عاماً بحثَ عنها
إلى أن وجدها
الآن يلتقيان فَرِحَين
تسيرُ إلى جانبه وقد أصبحتْ أطوَل
يسير إلى جانبها وقد أصبحَ أطيب
لكنه إذا فكَّر لحظة بلمسِ يدها ستسحبُها كما لو أنها ستُلدَغ!!
يدُها ليستْ لهُ
يدُها لآخرَ سيلقاها يوماً ما!!

الآن تبتسمُ
لكن شفتيْها ليستا له
فالعسلُ الذي يفيضُ منهما
لآخرَ سيلقاها يوماً ما!

الآن تتنهَّدُ بفرح
فتمتلئُ تفاحتاها بالغبْطةِ والكرز
لكن تفاحتيها ليستا له
إنهما لآخرَ سيلقاها يوماً ما!

الآن تتجمَّعُ كلّها بين يديهِ
كعنقودٍ من عنبِ الجبِال
لكن دِفأَها ليس له
إنه لآخرَ سيلقاها يوماً ما!

الآن تضحكُ بفرح

ويرتعشُ الموج حوْلَ سُرَّتِها الطيِّبةِ كشمس
وبطنِها الناعِمٍ كفرو أرنبة فرنسيّة
لكنه لن يستطيع السِّباحة في ذلك الموج
إنه لآخر سيلقاها يوما ما!

الآن تتمنّى أن تراهُ كلَّ يوم
لكن عمرَها الذي يمرُّ
كفراشةٍ أمامَ النار تدَّخِرُهُ
لآخرَ سيلقاها يوماً ما!

بعد عامين أو ربما أقلّ من ذلكَ بكثير
ستجدُ الآخرَ الذي انتظرتْهُ
وحين يُقبِّلُها
ستدركُ الفتاةُ السَّمراءُ، حينها، كم أضاعتْ من قُبَلٍ
أما شفتاها الحزينتانِ كوردةٍ ذابلة
فلن تتكلَّما معها بعد ذلكَ أبداً!!

الفصول الأربعة

في العاشِرةِ كان لي أربعةُ فصول كاملة:
الربيع والربيع والربيع والربيع
في العشرين كان لي ثلاثةُ فصول كاملة:
الصّيفُ والصّيفُ والصّيف
في الأربعين كان لي فصلانِ كاملان:
الشتاءُ والشتاء
بعد ذلك كان لي فصلٌ واحد لا غير:
الخريف!!

القدِّيس

إلى إحسان عباس.. دائما.. في إقامته بيننا ورحيله فينا

ويهبطُ هذا النّهارُ على ظلِّنا مطراً
فيه من لغةِ النّايِ حزنٌ قديمٌ
وشيءٌ من اللهِ والأنبياءْ
ويهبطُ غيماً مضيئاً بحكمةِ زيتونِنا
في دروبِ المساءْ
ويهبط أغنيةً تتجوّلُ في غرفِ البيتِ باحثةً عن خيولٍ
وعن أَنْهُرٍ وفضاءْ
ويهبط هذا النهارُ..
نراكَ هنالكَ في شمسهِ شجراً
يحرسُ الرّوحَ في زمنِ الموتِ يا أبتي
ويردُّ البحارَ التي سقطتْ من ثيابِ السماءْ

* * *

نبدأُ من الأندلس
لكننا لن ننتهي إليها

* * *

لم تسأل الطريقَ عن وجهتِهِ
ولا الوردةَ عن نهايتِها
ولا الليلَ الذي يُقْتَلُ بالضوءِ
عن شغفهِ بالعتمةِ
ومغالبةِ الأحياءْ
رفعتَ الأغنيةَ إلى مكانِها اللائقِ
كي لا تحتلَّ الكذبةُ كرسيَّ الشمس
وأرسلتَ عناويننا للضوء
كي لا يعرفَ النِّسيانُ أسماءَ حبيباتِنا
ويقودَ البياضَ إلى ذاكرتنا ذاتَ مشيب
هذه الأرضُ مرّتْ علينا
كأنّنا الأرض

واختلستْ من سمائنا حكمةَ الاسمِ
وهو يقودُ صاحبَه خارجَ الظِّلال
لم تكن تُشبه الضوءَ أجل
ولا العتمةَ كما تمرُّ في الدَّمع
لم تكن تُشبه الظلَّ
... إنساناً ليس إلّا
أحلامُهُ على كتفيه
وحيثما مرَّ تفتَّحتِ الواحات

* * *

لم نكن قد تَرَكْنا الكثيرَ من العشبِ حين ابتعدْنا
حملْنا جِرارَ الأغاني الحزينة فوق الظُّهور
حملْنا الشوارعَ والمدرسةْ
حملْنا سطوحَ البيوتِ ونعناعَها والخطى فوق أعتابِنا
وحملْنا كتابَ القراءةِ
سُورةَ مريمْ
وسِرْنا إلى آخرِ العُمْرِ كي نتعلَّم أسماءَنا من جديدٍ
ليذكُرَنا البحرُ حين نعود
ولم نكُ نعرفُ أن المسافةَ يا أبتي -كلما أوغَلَتْ-
مشهدٌ ناقصٌ
لا يطلُّ على حنطةٍ أو ورودْ
وأنّا هنا في الظِّلالِ سنكبُرُ قتلى بلا مطرٍ أو شهودْ

* * *

تتواضعُ الوردةُ فتصبحُ وردةً أكثر
وتنادي فتنحني الجبالُ كي يعبرَ الصوت
الحكايةُ كلُّها نحنُ
ولكننا لسنا الأبطال
واللغزُ الذي كلّما أضاءَ

أصيبَ بعتْمةِ المنفى.
لا النهايةُ اليافعةُ تشيرُ إلينا
ولا البدايةُ التي هَرِمَتْ تستعيدُ ما كان
لم نتوقَّفْ أمامَ البابِ
لنسأَلَ الأَبناءَ عن آبائهم الذين كانوا هنا
لم نَسْتَرِقِ الضوءَ السَّاقطَ من خلْفِ السَّتائرِ كالحنين
ولم نَطُفْ حولَ بيوتِنا كي لا نُجَرِّحَها بكوننا غرباء
الحكايةُ حكايتُنا قلتُ لك
لكننا لسنا الأبطال

* * *

بعيداً إلى آخرِ الأرضِ سِرْنا
وجرَّدَنا الموتُ من موتِنا
حين لم يُبْقِ - يا أبتي - من عدوٍّ لنا
غيرَ هذي الظّلالِ الفقيرةِ مثلَ الرَّماد
وجرَّدَنا من طريقِ الرُّجوعِ إلى بيتنا في أعالي البلاد
ومن كلِّ منفىً هبطنا عليهِ نهاراً
وباغَتنا بحداد
وجرّدَنا من حنينٍ إلى ما مضى
وحنينٍ إلى ما يجيءْ
.....
شجرٌ يتقلَّبُ في ظُلْمةٍ وظلامٌ يضيءْ !!

* * *

تترفَّقُ بالأغنيةِ في طريقها للعرس
كي تعثُرَ الصبايا على قاماتِهنَّ في دروبِ السَّرو
وعلى بياضِ زفافهنَّ في الخيول
تترفقُ بالخطوةِ في طريقها للحلم
كي لا تخدِشَ الهواءَ تحتَها والنُّور

وتُمسكُ بالترابِ كي لا يفرَّ الجسدُ منه
لا طَمَعاً في الخلودِ نكرهُ الموتَ
ولكن حبّاً بما تبقّى هـهنا من أحياء
لن أقولَ لكَ ترفَّق بالوردةِ
وأنتَ تمنحُها لسواك

* * *

ويعرفُكَ اللهُّ أكثرَ منّا
لأنكَ أقربُ للنُّورِ
يعرفكَ الحقلُ أكثرَ منّا
لأنكَ أقربُ للقمحِ
يعرفكَ النهرُ أكثرَ منا
لأنكَ أقربُ للعشبِ
يعرفك الحبُّ أكثرَ منا
لأنكَ أقربُ للقلبِ
يعرفكَ البيتُ أكثرَ منا
لأنكَ أقربُ للدَّاليةْ
ويعرفكَ البحرُ يا أبتي مثلَ (حيفا)

* * *

المنفى !!!
لم يكنْ أكثرَ من مرآةٍ،
صُوَرُنا فيها أَجل
ولكن، لا وجودَ لنا خارجَها.
منفيونَ كما لو أنّنا لم نملكْ وطناً ذاتَ يوم.
فعلى أيِّ صدرٍ يمكن أن نُلقي رؤوسَنا
على أيِّ صدر؟
كم حاولْنا أن نرفعَ النَّخلَ ليُصبحَ الأطفالُ أطول
ولكي ينحني كلما مرتِ امرأةٌ في البال

* * *

على شرفةِ البيتِ بيتٌ يُلَوِّحُ
نافذةٌ تتفلَّتُ من خشبٍ وحديدٍ
لتعدو مع الرِّيحْ
على شُرْفةِ البيتِ طيفُ جوادٍ جريحْ

* * *

أعرفُ!!
لم نستر قلبَ المرأةِ التي نُحبُّ كما ينبغي
لم نُحبّ الحبيبةَ كلَّها
لذلك عشنا عراةً كالملوك
كان لا بدَّ من طفلٍ إذن
كان لا بدَّ أن يقالَ لنا بوضوح
أبشرٌ أم ملائكةٌ نحن!
لنعرفَ المدى الذي يُمكنُ أن نقطَعَهُ في طريقِ المرأة
والعذابَ الذي نحتملَه قبلَ أن نقول: آه
.....
كان لا بدَّ من طفلٍ إذن
يُشيرُ إلى العُري الذي فيه
وإلى أرديةِ الحديدِ التي نرتدي
كان لا بدَّ من طفل
لنعرف أننا عراةٌ كلُّنا تحتَ الثِّياب
.....
كان لا بدَّ من حكايةٍ تكتبنا
دونَ أن نكونَ فيها
فقد يغفرِ الوردُ الذابلُ في أيدي النساءِ خطايانا
نحن الذين قطَعْنا الطريقَ كلَّه
دونَ أن نُغادرَ المكان

وكان لا بدَّ من رياحٍ لأوراقِنا
وبياضٍ لحروفِنا كي لا تتعوَّدَ الحِبر
.....
كم حاولتَ ألا تكبُرَ كي لا تخدشَ الماءَ أو الغصون
فلم تكبرْ سوى في المرآة

* * *

ونحتاجُ أكثرَ من طيفها
كي نُحدِّدَ معنى يديها
ولفتَتَها في الصّباحْ
وخطوتَها في الممرِّ
ونهدتَها في الرياحْ
وزنبقَها في المواعيدِ
رقتَها في الجناحْ

* * *

لم تقطع الوعودَ
لأنكَ أصدقُ من الكلام

* * *

نحتاجُ معجزةً إذن
أو بحر
كلّما وقفنا أمامَ المرأةِ
أو اندفعنا بعيداً عن المرآة
لم نذهبْ لموعدِنا
لأننا كنّا هناك
ولكن...
لن تُصدِّقَ النوافذُ صمتَنا ولا الأبواب
ولن تقبلَ الحبيبةُ عُذْرَنا
في مثلِ هذا الليل

* * *

خصلةٌ من شَعْركَ تكفي
ليعرفَنا النَّهار

* * *

ثلاثُ أغانٍ على بابِ بيتكَ يا أبتي
وعلى النافذةْ
ثلاثُ يماماتْ
وغصنُ صنوبرةٍ يتسلّلُ للرُّكْنِ
يا أبتي خاشعاً كصلاةْ
ثلاثُ أغانٍ على بابِ بيتكَ يا أبتي
وعلى النافذةْ
ثلاثُ يماماتْ

* * *

من أين لكَ كلُّ هذا الظِّل
أيّها الشفاف؟!
من أين لك كلُّ هذا الضّوء
أيها العابرُ العتمةَ كمطرٍ أو قدِّيس؟!

* * *

الغربةُ تطلُّ برأسِها من شقِّ الدَّمع
ومن الزَّنبقِ الطافي على وجهِ الماء
خُذ الرياحَ للحقل وعلِّمْها النَّسمات
والصحراءَ للواحةِ وعلِّمها النخيل
خذ الوطنَ لاسمكَ وعلِّمْه البحر
والملْحَ للخُضرة وعلِّمه الضِّفاف
خذ النهرَ لبيتكَ وعلِّمه الأرض
خذ الأرضَ لصدركَ وعلِّمها القلب
خذ الشِّعرَ للماءِ وعلِّمه الرّوح

خذ الروحَ للطيرِ وعلِّمْها الجناح
خذ البصرَ للبصيرةِ وعلِّمْه الحِكمة
والحِكمةَ للكتابِ وعلِّمْها السُّخرية
.....
خذ النهايةَ إلى أقصاها وعلِّمْها الحياة..

* * *

كان لا بدَّ أن تَعبُرَ لنتعلَّمَ الطريق
كان لا بدَّ أن تُضيءَ لنتعلَّمَ الجهات
خصلاتُ الشَّعرِ الأبيضِ وهذا الجبين
وكلُّ تلكَ الحنطةِ في اليدين
أسماءٌ للشمسِ في هذا الليل.
.....
تبدأُ من الأندلس
لكنكَ لن تنتهي إليها
يعرفُ القلبُ ذلك والبحر
فتواضع كما شئتَ
حين تُشيرْ إلى عصاكَ
وأنتَ تقول:
ها أنا أتكيءُ عليها -آخرَ الأمر- مثلَ سواي
ولكن تذكَّر
كم كانَ يمكنُ أن تكون قاماتُنا محنيَّةً
لو لم نتكِيءْ عَليك!

1

تتعدَّدُ في كلِّ شيءٍ
وتَسكُن في أرضِ قلبكَ بحراً ونهراً
ومعنىً لهذا الجمَالِ الذي يجعلُ الورْدَ أطيبْ
تتعدَّدُ في سُحُبٍ ودروبٍ
وفي شجرٍ للقصائدِ أقربْ
ولم تكُ نجماً على مسرح الوقتِ
أو مطراً عابراً في الكلامِ
ولا خطوةً تستدرُّ الحقيقةَ في شبه حُلْمٍ
ولا وطناً عالِقاً في الغَمامِ
ولا نصفَ اسم لهذا الحَمامِ الأليفِ المهذَّب

قالوا لنا: الماءُ في النَّهر عَذْبٌ
فقلتَ لنا: الماءُ في البحر أَعذَبْ!!

* * *

على حافةِ الحُلْمِ تجلسُ أرضُ
على حافّةِ الوقتِ
لا في البحارِ البعيدةِ بحرُ
ولا في الحديقة وردُ
على حافّة الصَّمتِ مذبحةٌ تتهادى
وفي خطواتِ الصَّباح على العشبِ منفىً يسيلُ
وفي الحلْقِ رملٌ، خيام،
وأكثرُ من وجْهةٍ أُغلِقتْ بالدِّماءْ
وفي الكلمات القليلةِ ما في فمِ الضّوءِ: ماء!
فضاءٌ غريبٌ يُحلِّقُ فوق الرؤوسِ
على جسدٍ مُتْرَعٍ بالرَّصاصِ
نهارٌ يجفُّ على خِنجرٍ وهواءٍ مقيَّدْ

قالوا لنا: تلكَ شمسٌ تموتُ
فقلتَ لنا: بل توارتْ لتُولَدْ

* * *

المنازلُ بيضاءُ
فوق التلالِ البعيدةِ
والضّوءُ يمشي كطفلٍ على حافّةِ السُّورِ
خلْفَ المنازلِ أشجارُ حَوْرٍ
ورفٌّ طيورٍ على موعدٍ مع فتاةٍ جَليْليَّةٍ
وجهُها فَرِحٌ كاسمِها
وعلى بعد حقلين
ثمة مَرْجٌ فسيحٌ يُرى راكضاً مع خيولٍ أثيريَّةٍ طائرةْ

قالوا لنا: ذاك محضُ سرابٍ
فقلتَ لنا: بل بلادٌ على حُلْمها ساهِرَةْ

* * *

قربَ بابِ العمودْ
هنالكَ في القدْس نصفُ سماءٍ مُعَلَّقةٍ بأصابعَ فلّاحةٍ
عَبَرتْ نصفَ جيشٍ
وأسبوعَ موْتٍ
وخمسَ جِهاتْ
لتؤدِّي الصَّلاةْ
قربَ بابِ العمود تحدِّق في الظلِّ يمشي بطيئاً على خوذةِ العسكريِّ
على فَوْهَةِ البندقيّةِ
فالوقتُ لما يَحِنْ، بعدُ، كي تلتقي الله، قالَ الطُّغاةْ!!
السّماءُ الصغيرةُ ترتاحُ نصفَ نهارٍ على وجعِ العتباتْ

هذه الأرضُ، قالوا لنا: حقلُ موتٍ
فقلتَ: حياةْ

* * *

لأُرتِّبَ اسمَكَ في مقطعينِ وبعضِ حروفٍ
سأحتاجُ خمسين عاماً وستَّ حروبٍ
وألفَ بدايةْ
لم نكن زبَداً قربَ شاطئ بحرٍ
ولا مقطعَاً زائداً في روايةْ
ولا كوكباً عالقاً بغريب أضاعَ الطريقَ إلى روحهِ
وهو يبحثُ عن أُفْقِهِ في النَّديم!
ولا محضَ ريشٍ على سفحِ ذاكرةٍ مُرَّةٍ
جرَّحَ القلبَ فيها هبوبُ النّسيم!!
ولا قمراً في مهبِّ الغوايةْ

قالوا لنا: هذه الريحُ سَدٌّ
فقلت لنا: هذه الرِّيحُ رايةْ

تتعدَّدُ في كلِّ شيءٍ
وتَسكُن في أرضِ قلبكَ بحراً ونهراً
ومعنىً لهذا الجمالِ الذي يجعلُ الوردَ أطيبْ
فلم تكُ نجماً على مسرح الوقتِ
أو مطراً عابراً في الكلامِ
ولا نصفَ إسم لهذا الحمَامِ الأليفِ المهذَّب

قالوا لنا: الماءُ في النهر عَذْبٌ
فقلتَ لنا: الماءُ في البحر أَعذَبْ!!

2

نحنُ من نحنُ،
نحنُ الطريقُ إلى ما نُحبُّ
ونحن الرحيلُ
ونحن الحنيُن
ونحنُ الحجرْ!
ونحن الصغيرُ الذي يحرسُ البيتَ
مِنْ قمةٍ لم تعدْ تذكرُ السَّفحَ
.. مِنْ مُنحدَرْ
ونحن عناوينُ آبائِنا في الرِّياحِ
وفي الحقلِ والشّمسِ يجتمعانِ هنا في المطرْ
ونحن بدايةُ ذاكَ الطريقِ
وحِكمةُ هذا الشّجرْ
ونحن بساطةُ عصفورةٍ فوق شجْرَةِ توت
تُغنِّي لهذا المدى وهي تُبْصِرُ فصلًا يعيش وفصلًا يموتْ

* * *

ولِدْنا معاً ذات يوم على شاطئ البحرِ
تحتَ صنوبرةٍ وترَكْنا النخيلَ ليولَدَ في ظلِّه الأنبياءْ!
لنعشقَ ما نشتهي من طيورٍ
ونعشقَ ما نشتهي من نساءْ
ونعرفَ آباءنا، الأخواتِ، وجاراتِنا، الأمهاتِ، وأخوتَنا الطيبيَن، وجدّاتِنا الفارعاتِ ونحن نسير
على هدْيهنَّ هنالكَ، من مَطْلَع الفَجر حتى المساءْ
رضِينا بما رضيتْ خيلُنا
أفقاً واسعاً
وسهولًا
صهيلًا يُمشِّط شَعرَ الليالي
ونايًا على التلِّ

درباً بلا فزعٍ ودماءْ

كان في القلبِ متَّسَعٌ للجميعِ
لأبنائنا القادمينَ وللدَّمع في أعين الغرباء!

* * *

كان يكفي قتيلٌ إذنْ
طالبٌ، أو عجوزٌ وعكَّازها
طفلةٌ أو كتابٌ وسورٌ وبيتٌ..
ظلالُ سحابةْ
لنعرفَ أن الطريقَ الطويلَ إلى روحنا أسْلَموه لغابةْ

سنحلمُ لا بأسَ
قلنا: ستكفي النهارَ هنا وردةٌ في جدار قديمٍ
لنوقِظَ ألفَ سؤالٍ ونَسْخَرَ من عسلٍ في هدوءِ الإجابةْ
هنا في طريقٍ يسوقُ غيابَهْ
إلى غربةٍ سوف تُصبحُ منفى
وبقَّالةٍ تحمِلُ اسمَ (الخليلِ) وأخرى اسمَ (حيفا)!!

نرتِّبُ أسماءنا من جديد لنعرفَ إن نحنُ نحنُ هنا
ونُحدِّق في مَن تبقّى على قيد حنطتهِ،
ويديه، خطى قلبهِ في الكآبةِ أو في الرَّتابةِ أو في الكتابَةْ!
لنذكرَ أوجُهَ أطفالنا، إنْ مصادفةً، في المذابح مرّوا طيوراً وقتلى
نُحدِّق في ما مضى وهو يرجِعُ أحلى وأغلى!
وحين نُحدِّق فينا نرى الموتَ، أسماءهُ، وذئابَهْ
شوارعَهُ، طينَهُ، وسحابَهْ
وليلاً يُحوِّم في لحمنا واثقاً كذُبابةْ

* * *

لنا مطرٌ في السماءِ

وفي الأرضِ وحلُ
لنا عيْشةٌ في النهارِ
وفي الحلْم قتلُ
لنا وجهة في الرياح
وفي الموت نسْلُ
لنا طائرٌ في الفضاءِ
وفي الرّمل نمْلُ
لنا قمرٌ في الليالي
وفي الظَّهر نَصْلُ
لنا وردةٌ في الخريف
وفي الموت جهْلُ
لنا جسد في الدوالي
وفي القبر ظلُ

لنا فيكَ ما في يدينا هنا منكَ.. أهْلُ

* * *

تشتهي الوردةُ الحقلَ
والموجةُ البحرَ
والليلُ هذا الرغيفَ المعبأَ بالنورِ فوق التلالْ
تشتهي فسحةٌ بين حوشين زيتونةً
تشتهي شرفةٌ، دونَ بيتٍ، مدىً
تشتهي أن تطيرَ وتعلو
وفي قلب هذي السّما تتأرجحُ مثل هِلالْ!
تشتهي نجمةٌ موعِداً دون خوفْ
تشتهي شاعراً تحتَ ليلةِ صَيْفْ
تشتهي امرأةٌ حُلُما كاملًا
من ندىً، لا دخانْ

يشتهي ولدٌ أنهراً في السِّلال
وكي لا يموت بطائشةٍ
أو بلَهْو الجنودِ هنالكَ في البُرْج من ضَجَرٍ
حفنةً من زمان!

* * *

لنعثُرَ في جهةِ النَّهرِ عمّا يدلُّ علينا
حَلمْنا كثيراً
كثيراً قُتِلْنا
قليلا عدَوْنا لما ليسَ فينا
نسينا، ارتحلْنا
ولكننا لم نصِلْ حين ضعْنا
ولا حين، يا سيدي، قد وصَلْنا!!
أُفسِّرُ ما لا يُفَسَّرُ
فسِّرْ معي ما يُفَسَّرُ
كُنّا،
ابتكرنا معاً كلَّ ما كانَ حتى نكونَ
ولّما نزلْ بعد: كُنّا!!
غفوْنا، صحوْنا
صمتْنا، وقُلْنا
احتكَمْنا، حَكَمْنا، حُكِمْنا
أَصَبْنا وصرْنا على بُعدِ وحْيٍ من الأنبياءِ
أُصِبْنا وصرْنا على بُعدِ جُرحٍ من الشُّهداءِ
رجعْنا وصرْنا على بُعدِ سنبلةٍ من يدْينا
علونا فصرْنا على كَتِفٍ من جموح السَّماءِ
وقعْنا، نهضْنا
ومثل بقيةِ هذه الشعوبِ
وفَيْنا، وخُنَّا!!

* * *

لم يزلْ فيَّ ما فيكَ، كلُّ التراب، لأسأَلْ
أهذا الجنونُ لنا أم لآخرَ أَعْقَلْ؟!

نحو شرقٍ سرابٍ تسيرُ الجنازةُ
والشرق يرحلْ

* * *

خَسِرَ الطيبونَ، القبيحونَ،
والنصفُ نصفٍ
ومن حَلِموا خسِروا
وكذلك من غنِموا خسِروا
خسِرَ الواقعيّونَ
والعقلاءُ
كما خسر العائدونَ إليها
ومَنْ خَلْفَهم خسِروا كلَّ منفىً
ومَنْ بينَهم خسِروا
.....
لنعُدْ للبدايةِ كي لا نكونَ أقلَّ جَمالاً..
أقلَّ تراباً أقلَّ حياةً أقلَّ وطنْ
ولكيلا نعمِّرَ في الموتِ موتاً ونرجعَ من عرسِنا بكفَنْ
لنعُدْ للبدايةِ حتى نكونَ أقلَّ شحوباً إذنْ
وليكنْ للسُّؤال طريقٌ وللرّوح فينا بدَنْ
فالزَّمانُ مكانٌ يدلُّ علينا
المكانُ ملامحُنا في الزّمنْ

ونحن الحنيُن
ونحن الحَجرْ
ونحن بدايةُ ذاكَ الطريقِ

وحِكمةُ هذا الشجرْ
ونحن بساطةُ عصفورةٍ فوقَ شَجْرةِ تُوت
تُغنِّي لهذا المدى وهي تُبْصِرُ فصْلًا يعيشُ وفصْلًا يموتْ

الشاعر

إلى طَرَفَة بن العَبْد

ولِدَ الشاعر طَرَفَة بن العَبْد حوالي سنة 543م في البحرين من أبوين شريفين، وكان له من نسبه ما يحقق له شاعريته الفذة، فجدّه وأبوه وعماه المرقّشان وخاله المتلمّس كلّهم شعراء. مات أبوه وهو بعدُ حدَث فكفِله أعمامُه إلا أنهم أساؤوا تربيته وضيَّقوا عليه فهضموا حقوق أمه، فعاش طفولة مهملة لاهية طريدة، وما كاد يفتح عينيه على الحياة حتى قذف بذاته في أحضانها يستمتِع بملذّاتها فلها وسَكر ولعب وبذّر وراح يضرب في البلاد حتى بلغ أطراف جزيرة العرب.. هجا الملك عمرو بن هند، فحمَّلَ هذاكلًا من طرفة وخاله المتلمّس رسالة مُغلقة، أوهمهما أنها تتضمّن مكافأة؛ وتروي القصّة أن المتلمّس فضَّ الرسالة وعرف مضمونها، ونجا من القتل، في حين أن طرفة أبى أن يفتح رسالته ومضى إلى حتفه. فقتله والي البحرين بناء على أمر الملك (إذا وصلك حامل كتابي هذا فاقطع رأسه) وقيل إن طرفة كان في أواسط العشرينات من عمره، وقد طلب من والي البحرين أن يشرب حتى يسكر ثم يُقتَل.

ليسَ إسمي الذي في نهايةِ هذي القصيدةِ
ذلكَ عشبُ طريٌّ تهجّى الغيومَ
ليعرفَ أينَ حدود الرَّدى في امتدادِ الجسدْ
أنا عُمْرُ هذي الفراشةِ
لا ضوءَ خلْفي يُشيرُ إلى أزلٍ كنتُ فيهِ..
ولا يعرفُ الوردُ معنى الأبدْ
أينَ يمضي الفتى في احتدامِ زمانٍ مضى
وزمانٍ يُقَلِّبُ نيرانَه
ويُغْرِّرُهُ باتِّقادٍ
وليسَ له -آخرَ الأمرِ- من ذلكَ الدفءِ
غيرُ رمادٍ
وشَاهِدةٍ من رمالٍ ستشهدُ
أنْ ليسَ تحتَ الرّمالِ أحدْ ؟!!!!

* * *

تعرفكَ الأغاني أكثرَ مما يعرفكَ الناس
والصحراءُ خطوتك الضالّةُ لفكِّ عُزلةِ القبر ومَن فيه
لن ترحلَ أبعدَ مما شاءت القصيدة
ولن تعودَ إلى موقعٍ أدنى من الغربةِ فيك
الأهلُ شهادةُ وفاةٍ على ما فيكَ من شبقٍ للشّك
والطمأنينةُ السّاطعةُ في قعر الكأس
ليستْ أكثر من سؤال جديد
لن أقولَ لك ترفَّق بيقينٍ لا يُشير إلى جهة أو جواب
الحكاية نعرفها كلنا
لكننا نتشاغلُ عنها بك

* * *

ليس اسمي الذي في الحكاية يجري
ويسبقُني مثلَ ظِلٍّ عَجولٍ
ليختبرَ الصمتَ في أعينِ الناسِ
أو في معابدِ آلهتي
كان لي أن أقولَ انتهتْ منذ أن بدأتْ رحْلَتي
فكتبتُ القصيدةَ،
لكنَّ راحِلَتي لم تُصدِّق كلامَ القصيدةِ
قد يُقنِعُ الموتُ راحِلَتي

* * *

تشغلنا الحكايةُ أكثر ممن يعيشون فيها
تشغلنا أكثر ممن يموتون على أرصِفتِها
كان يُمكن أن تموتَ هناك
مثلما ماتت الليالي
فلم يكن ثمةَ هواءُ يكفي القصيدة في أيِّ مكان
خُطاك لا تعرف الدَّربَ إلّا في العتمة
كما لو أن أحداً لم يقُل لكَ: هناك نهار

* * *

ليس اسمي الذي في خُطايَ
سيعرِفُني قاتلي جيداً
أينَ قلبي ومَنْ فيه سيِّدتي ؟!!
أين وجهُكِ فيَّ وفي خمرتي ؟
يتفتتُ هذا الزَّمانُ فأسقطُ
من مشهدٍ لا يُطلُّ على الغَدِ
من نجمةٍ لا تدلُّ الطريقَ إلى أيِّ شيءٍ
سأرتاحُ، أينَ؟
ولي كلُّ هذا العَدوِّ هنا عابراً
أو مقيماً بذاكرتي ؟!!

* * *

ستٌّ وعشرون لا تكفي كي تقولَ أنكَ قد عِشت
لكنها كافيةٌ كي نشهدَ أننا عِشنا بك
فالنّهاية آخرُ الأمر هي الحكايةُ كلُّها
ها نحن نجلس مدجّجين بهدوءٍ قتلى أزليّين
كي نصطادَ نهايةً صالِحَةً
لا نحسدُ سوانا لأنهم عاشوا كما شاءت الحياة
نحسِدهم أنهم ماتوا كما لا يشتهي الموت

* * *

ليس حُلْمي الذي في دمائيَ يجري
ويغوي الوحوشَ بلحْمي
ويتركُها ترتعِدْ
من جراءةِ هذا القتيلِ
ومن صمتِ هذي الليالي
ومن برْدِهِ المُتَّقِدْ
كيف أقنِعُ ذئباً ليأوي إلى جسدي دونَ خوفٍ

وأنشدُ هذي القصيدةَ حتى
يقولَ لي الموتُ: هيا أَعِدْ !!!
لا أُصالِحُ موتي هنا عبثاً فهو هذا الجَسدْ!

* * *

بعيدا فيكَ أو فينا
لنا الأسماءُ نفسُها
وإن تغيَّرت الحروف
والنهايةُ نفسُها
وإن تغيَّر القاتل
والقصائدُ نفسُها
وإن تغيَّر الزّمان
والوجوهُ نفسُها
وإن اختلَفت الأبوابُ التي توصدُ كلما جئنا من بعيد
ما الذي يعنيه إذن أننا ولِدْنا في زمنين مُختَلِفَيْن؟!!
ليس أكثر - ربما - من أن نكون أوفياءَ قليلًا، ونتذَكَّر

* * *

ليس جسمي الذي يتناثرُ كالرَّملِّ في كلِّ ناحيةٍ ويصيحُ
هنا طلَلي
يتعقَّبُني ويسدُّ عليَّ الدروبَ رحيلًا
ويسبِقُني كلّما عدتُ سراًّ إلى مَنْزلي
سائراً كالحصى أتعثرُ فوق الرِّمالِ
وأعفي الإجابةَ من حَيْرَةٍ في السّؤالِ
لعلَّ ضياعاً سيرشِدُها !!!
كلّ هذا الرحيلِ لأرحلَ عن صورتي للنهايةِ، في لُغتي
عن سكونيَ كالماءِ قربَ الخيامِ وعن سُبُلي

* * *

البيوتُ كالبشر تنسى

والأبوابُ خُلقتْ لتُوْصَدَ لا لتُفتَح
تذكّرْ ذلك جيداً
كي تترك مكاناً ملائماً للغرباء فيك
ولوحوشِ البَر
لستُ أدري إن كان ثمة نوافذُ تكفي لعبور الضّوء
ما داموا ابتكروا كلَّ تلك الجدران
العتبةُ احتلتْ مكانَ السّفح
والكراسي مكانَ الصّهوات
بقليلٍ من التواضعِ
كان يُمكن أن تترفَّق بنا نحن الأصدقاءُ الذين لم تعرفْهم

* * *

ليس وجهي الذي في المرايا
هنا البحرُ أقربُ من أيِّ شيء إلى بدني
وبي كلُّ هذي الرمالِ
وسيرتُها زمني
أحثُّ الخطى للشَّمال
لعلَّ صباحاً يُطِلُّ هناكَ
ويَغسِلُني من جنوبي الوحيدِ
ومن شجني
ويغسِلُني من عذاباتِ روحي
... ومن وطني
غريبُ هنا
لا كلابيَ تعرفُني إن مررتُ بها -ذاتَ صُبْحٍ-
ولا سَكَني
راحلُ كي أرمِّمَ صوتي قليلًا وأُنشدَ
هل مَنْ رأى كفني؟!

* * *

من رآه لن يعترف
سيقولُ: إنه مناسِبُ له أكثر
هكذا الأمر دائما
يقتلوننا طمعاً بأكفاننا، ليس إلّا
كما لو أنهم صعدوا ذات يوم ذلك الجبلَ الذي صعدناه
أُغنِّي لكَ الأغنيةَ كي لا يكونوا كلُّهم ضدَّك

* * *

ليس شِعْري الذي فاضَ حين أطلتْ علينا
ولكنه الضوءُ ينفضُ عني ضريحي
رأيتُ حِبالَ الهلاكِ الجميلةَ ترفعَني
والمدى قادمُ من بعيدٍ على صهواتِ السِّفوحِ
يليقُ بيَ الموتُ حين يكون رحيماً إذن !!
وتليق بيُ الصَّبواتُ
النَّهاراتُ
وقْعُ النّدى في صحارى جروحي
تليق بيَ الشمسُ حين تُطلُّ
وتعصفُ بيْ، يا كواكبُ، ريحي
تليقُ النهاياتُ بيْ كالغموضِ
تليق النهاياتُ بي كوضوحي
لأصرخَ ملءَ الفضاء الكسولِ:
القصيدةُ تكتُبُني كالهواءِ
وتَنشدُني فوق أطلالِ روحي

* * *

المرأةُ وحدها سبب مُقنعُ كي لا نخشى الموت
سببُ مُقنعٌ كي نقول شيئاً جميلا لهذي الحياة
لن يسأل القلب
لأن الإجابةَ تفترسُ نصفَ الحبِّ وإن لم نعثر عليها

المرأة لم تكن ابنة للوالي
ولا أختا للإمبراطور
.....
وأعرف أنكَ لم تكن ذاهباً للحب

* * *

ليس شِعْري الذي في الحكاية يجري على أَلْسُنِ النّاسِ
تلكَ حياتي
رأيتُ النهايةَ عاليةً كالقصيدةِ..
وادعةً كالصلاةِ
رأيتُ الذي فاقَ حزني صفاءً من الكائناتِ،
يُرتِّبُ لي سيرتي وصفاتي
رأيتُ الكلامَ الذي بين كفيّ أبيضَ أبيضَ مثلَ المماتِ
رأيتُ الطفولةَ والبيدَ ترتعُ في عُشبِها الحُرِّ
سرَّ الذبيحاتِ والذابِحاتِ
فلا تطلب الآن مني رحيلًا
هنا بَرُّ ذاتي
وصلتُ إلى آخري كاملًا
كالبدايةِ كالماءِ والظُّلماتِ
فلا تفتحِ الليلَ لي كي أَفرَّ إلى الفجرِ ثانيةً
أو شتاتي
قتيلُكَ ؟!! لا بأسَ
لكنني لن أكونَ قتيلَ نَجاتي!

إبراهيم نصر الله

- مواليد عمّانٍ من أبوين فلسطينيين اقتلعا من أرضهما عام .1948.

صدر له شعراً

الخيول على مشارف المدينة 80. المطر في الداخل 82. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق 84. نعمان يسترد لونه 84. أناشيد الصباح 84. الفتى النهر والجنرال 87. عواصف القلب 89.حطب أخضر 91. فضيحة الثعلب 93. الأعمال الشعرية - مجلد يضم تسعة دواوين 94. شرفات الخريف 96. كتاب الموت والموتى 97. بسم الأم والابن 99. مرايا الملائكة 2001. حجرة الناي 2007. لو أنني كنت مايسترو 2008.

الروايات

براري الحُمّى 1985. الأمواج البرية 88. عَوْ 90. مجرد 2 فقط 92. حارس المدينة الضائعة 98. شرفة الهذيان 2005.

الملهاة الفلسطينية: زمن الخيول البيضاء 2008، طفل الممحاة 2000، طيور الحذر 1996، زيتون الشوارع 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى 2004.

كتب أُخرى

• هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق 2000

• الفن والفنان - كتابات جبرا إبراهيم جبرا في الفن التشكيلي 2000.

• ديواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم 2002.

• السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق 2006.

•صور الوجود - السينما تتأمل 2008.

• ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، الإيطالية..

• أقام ثلاثة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب - عمان 93.

• نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر 91. جائزة تيسير سبول للرواية 94.
جائزة سلطان العويس للشعر العربي 97.

موقع الكاتب على شبكة الإنترنت
www.ibrahimnasrallah.com

---

[1]بيت من شعر أبي نواس.

[2] صياغة أخرى لبيت المتنبّي.